القسم الثالث

فى السّودان

(١) حدود وجبهات السودان

(٢) توزيع المراكز الحضرية فى السودان

(٣) وجه السودان : دراسة حضارية مقارنة

١ حدود وجبهات السودان

١ ـ الحدود الشمالية

هذه الحدود خط مستقيم يتبع خط عرض ٢٢° شمالا من العوينات حتى ساحل البحر الأحمر . وتحدد هذا الخط فى اتفاقية ١٨٩٩ ـ وطوله نحو ١٢٨٠ كم . وككل حد فلكى لا يمكن تفسير اختياره الا بعامل الصدفة التاريخية ، التى جعلته الحد الجنوبى للمناطق التى لم تخلها مصر فى أثناء الانسحاب الذى نظمه الانجليز من السودان ، وجاء هذا الخط متعامدا على الظاهرات الطبيعية والبشرية فى المنطقة :

١ ـ يبدأ هذا الخط من منطقة العوينات وبينها وبين النيل نطاق غير معمور تتناثر فيه موارد مائية محدودة ، تعتبر محطات فى الطرق التى تعبر الصحراء بين الشمال والجنوب . ومن أشهرها طريق الأربعين الذى يمر فى هذا النطاق بواحة سليمة (فى السودان) وآبار شب وأبو حسين فى مصر ،ويتابع اتجاهه شمالا بعد هذا . وتدخل هذه المنطقة فى نطاق اللا معمور السودانى ، حيث لا تتوافر عوامل الاستقرار البشرى والحياة . وتنحصر أهميته فى حركة القوافل . وكان من قبل طريقا من طرق الهجرات البشرية ، أثر تأثيرا له خطره على السودان غرب النيل .

٢ ـ فاذا ما انتقلنا شرقا وصلنا الى وادى النيل ، حيث الاتصال الرئيسى بين الشمال والجنوب . والوادى هنا يختلف ضيقا واتساعا . ومن اليسير التمييز بين المعمور النيلى الذى تتركز فيه الحياة وترتفع كثافةالسكان ، والنطاق الغربى الى العوينات . فالحياة فى القطاع النيلى متصلة بين الشمال والجنوب من النواحى الطبيعية والبشرية . والفروق المحلية محدودة ، تقتصر على بعض نواحى اللغة وهى فروق آخذة فى

الاندثار مع انتشار التعليم والاقبال على اللغة العربية . وخط الحدود يخترق وطن الجماعات النوبية وهى بهذا موزعة بين مصر والسودان فى منطقة الحدود .

٣ ــ والى الشرق ترتفع جبـــال البحر الأحمر ، والى شرقها تنحدر الجبال فى سرعة الى سهل ساحلى ضيق ينتهى بنا الى البحر . فى هذا الجزء الشرقى نطاق قليل الكثافة من جمـــاعات البجاة الذين ينتشرون فوق رقعة تشمل الأجزاء الجنوبية من صحراء مصر الشرقية والسودان الشرقى كله والأطراف الشمالية من ارتريا . والقبائل الرعوية لا تعرف الاستقرار الكامل فى مكان واحـــد ، ولا تتقيـــد فى تجوالها بالحدود المصطنعة التى لا تستند الى مقومات من عناصر البيئة . والخط الفلكى ــ ٢٢° شمالا ــ يشطر هذه القبائل دون اعتبار لنظم حياتها .

ومن أجل ذلك عجز هذا الحد الفلكى عن أن يؤدى وظيفته التى أرادتها له اتفـــاقية ١٨٩٩ . وجاءت ظاهرة ازدواج الحـــدود بين مصر والسودان . وأصبح للسودان ، فى عهد الحكم الثنائى ، حدود سياسية وأخرى ادارية فى المناطق الآتية (١) :

١ ــ منطقة حلفا : وقد رأينا كيف نصت ديباجة الاتفاقية على ضمها الى السودان . ومدينة حلفـــا نفسها تقع على خط عرض ٥٥َ ٢١° . وتدخل حاليا فى نطاق بحيرة ناصر أمام السد العالى التى أخذت تحدث تغييرا جذريا فى جغرافية هذا القطاع النيلى . من أول مظاهره عمليات التهجير التى اتجهت فى مصر الى النوبة الجديدة (منطقة كوم امبو) . وفى السودان الى منطقة خشم القربة على العطبرة .. أما الصورة السابقة لهذه المنطقـــة والتى وضعت على أساسها اتفـــاقية ١٨٩٩ فأهم ملامحها الجغرافية هى :

أرض زراعية محدودة المساحة ــ وبخاصة جنوب المدينة ــ مما أدى

---

(١) انظر محمد متولى : الجغرافيا السياسية ، ط المعهـــد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ــ القاهرة . وقد درس الحدود الادارية بين مصر والسودان فى الباب الخامس من ص ١٠٤ الى ١١٢ .

الى تركز معظم السكان فى الأراضى الزراعية التى تقع شمالها ، حيث مجموعة من القرى الصغيرة مثل فرس ودبيره . وجاء تعديل خط الحدود ليضم الى السودان منطقة طولها ٢٥ كم من حلفا الى ادندان على شاطىء النيل الشرقى ويتجه غربا الى شمال قرية فرس على الضفة المقابلة ، وبهذه المنطقة نحو ٤٫٠٠٠ فدان من الأرض الزراعية ونحو ٨٢٫٠٠٠ نخلة ، وعـدد سكانها نحو ١٣٫٠٠٠ ، وقراها عشر . وتم هذا الضـم فى عام ١٨٩٩ .

٢ ــ منطقة جبل علبـة : وتقـع فى الركن الجنـوبى الشرقى من ج . ع . م وهى جبلية مرتفعة تتكون من صخور قديمة ، وتغطيها حياة نباتية غنية نسبيا ، تتوافر فيها موارد مياه تجعلها اقليما جغرافيا متميزا عن بقية الصحراء الفقيرة التى تنتهى الى النيل . وتسكن الجبل جماعات من البشاريين وهم قبيلة من البجاة الذين ينتشرون فى الصحراء الشرقية ابتداء من خط عرض قنا حيث يحيا العبابدة ، يليهم جنوبا البشاريون فى جبل علبة والسودان الشرقى ، ثم الأمارأر والهدندوه والبنى عامر . وهذه القبيلة الأخيرة يعيش ثلثها فى السودان والثلثان فى ارتريا . مثل هذا يقال أيضا عن قبيلة الشكرية التى تعيش فى سهل البطانة بين العطبرة والنيل الأزرق ، فبعض أقسامها يعيش فى الأجزاء الغربية من ارتريا .

ولمنطقة جبل علبة أهمية اقتصادية . فهى قطاع من الصحراء الشرقية ــ فى كل من مصر والسودان ــ حيث موارد من الثروة المعدنية ، لا تزال دراساتها بحاجة الى استكمال . وتزداد امكانيات الاستفادة منها مع تطور المواصلات وطرق البحث العلمى .

وعلى السهل الذى يشرف عليه الجبل قام مرفأ حلايب وتربطه طرق برية صالحة للسيارات مع بور سودان جنوبا والقصير شمالا . وفى قلب الجبل قامت مدينة جبيت المعادن حيث مناجم الذهب القديمة ، وهذه غير جبيت أخرى على الخط الحديدى الذى يربط بين بورسودان وهيا..

وقـد تم ضم هذا الجـزء ــ جبل علبه ــ اداريا ، من مصر الى

السودان فى عام ١٩٠٢ . وهو مثلث قاعدته خط عرض ٢٢ شمالا .. وله ضلعان متساويان تقريبا طول كل منهما نحو ١٨٠ كيلو متر .. ورأسه عند بئر الشلاتين على ساحل البحر الأحمر . وتقدر مساحته بنحو ١٢٫٥٠٠ كيلو متر مربع . وكانت حجة بريطانيا فى الضم أن يخضع البشاريون جميعا لادارة واحدة بدلا من توزيعهم اداريا بين مصر والسودان .

٣ ــ منطقة جبل بارتازوجا : وهى منطقة جبلية فقيرة فى نحو منتصف المسافة بين جبل علبه والنيل على شكل مثلث قاعدته خط عرض ٢٢ شمالا ورأسه الى الجنوب ومساحته نحو ٦٠٠ كيلو متر مربعا وقد رأت بريطانيا ضمه الى مصر ليصبح العبابدة الذين يسكنونها تحت الادارة المصرية . وتم هذا أيضا عام ١٩٠٢ ..

وواضح أن حجة الادارة القبلية لا تقوم مبررا كافيا لهذه الاجراءات لأنه حتى بعد التعديل ، ظلت جماعات من البشاريين تحيا شمال خط الحدود .. هذا الى أن الجزء المقتطع من مصر ، تبلغ مساحته أضعاف الجيب الصغير الذى ضم اليها ، ويزداد الفارق وضوحا اذا ما قارنا بين الموقع البحرى والمميزات الجغرافية لمنطقة جبل علبة من ناحية وبين فقر منطقة بارتازوجا وموقعها الداخلى .

وأسلوب تجميع القبائل فى ظل ادارة واحدة لم تتبعه بريطانيا على سبيل المثال مع قبيلة البنى عامر . فهذه القبيلة كما سبق القول تحيا فى كل من الأطراف الجنوبية للحدود السودانية الشرقية وفى ارتريا . حتى أن الأسرة الواحدة تحيا بعض أقسامها فى مديرية كسلا فى السودان الشرقى ، والأقسام الأخرى فى المديرية الغربية من ارتريا . وفى نظم المرور عبر هذه الحدود تراعى الدولتان هذه الروابط . ويكتفى فيها بالتصريحات المحلية التى تصدرها المديريات فى مناطق الحدود هناك ، دون حاجة الى الرجوع الى السلطة المركزية فى العاصمة . ولم تحاول بريطانيا بدعوى وحدة الادارة القبلية أن تنادى بضم مناطق البنى عامر

والشكرية الى السودان ، وكانت هذه المناطق وقتئذ تحت السيطرة الايطالية .

الذى نستطيع أن نخرج به من هذا العرض أن الفرق بين منطقتى علبة والمديرية الغربية فى ارتريا ــ ومن وجهة النظر البريطانية ــ كان راجعا ــ وقتئذ ــ الى مواقفها من مصر وايطاليا ، حيث تستطيع بريطانيا أن تتحكم فى الدولة الأولى ، لافى الثانية ؛ فطبقت مبدأ الاقتطاع فى الحدود الشمالية . واكتفت بتنظيم المرور عبر الحدود الشرقية مع ايطاليا المسيطرة وقتئذ على ارتريا . وكان لها موقف مختلف فى تخطيط الحدود بين السودان وأثيوبيا كما سنرى .

٢ ــ الحدود الغربية

ونقصد بها الجزء الممتد من جبل العوينات شمالا حتى التقاء الحدود الغربية بحدود الكونغو .. وامتدادها نحو ٢٢٠٠ كيلو متر .

١ ــ ويتبع الجزء الشمالى من الحدود الغربية ، بين خطى عرض ٢٠،٢٢ شمالا ، خط طول ٢٥° شرقا . وتخطيط هذا الجزء حديث يرجع الى عام ١٩٣٤ عندما كانت ايطاليا تحتل ليبيا .. ولها مطامعها فى تكوين امبراطورية افريقية . وتحت الضغط البريطانى وافقت مصر ــ أو اضطرت الى الموافقة ــ على نقل خط الحدود الغربى درجة طولية واحدة فأصبح يتبع خط طول ٢٥ شرقا بعد أن كان يتبع خط طول ٢٤° شرقا . وأعادت بهذا تقسيم موارد المياه فى منطقة العوينات بين مصر والسودان وليبيا . وخرجت ايطاليا بالنصيب الأكبر من هذه الآبار . وواضح من هذا التعديل انه كان هنا أولا لمصلحة ايطاليا حتى تصير لها نقطة ارتكاز وآبار فى الركن الجنوبى الشرقى من ليبيا ، فضلا عما فى نقل خط الحدود من ضم واحة جغبوب وجزء من منخفض سيوة الى ليبيا ــ وهى ــ اذا لم تكن فى يد صديقة ــ يمكن أن تهدد منطقة سيوة فى صحرائنا الغربية .

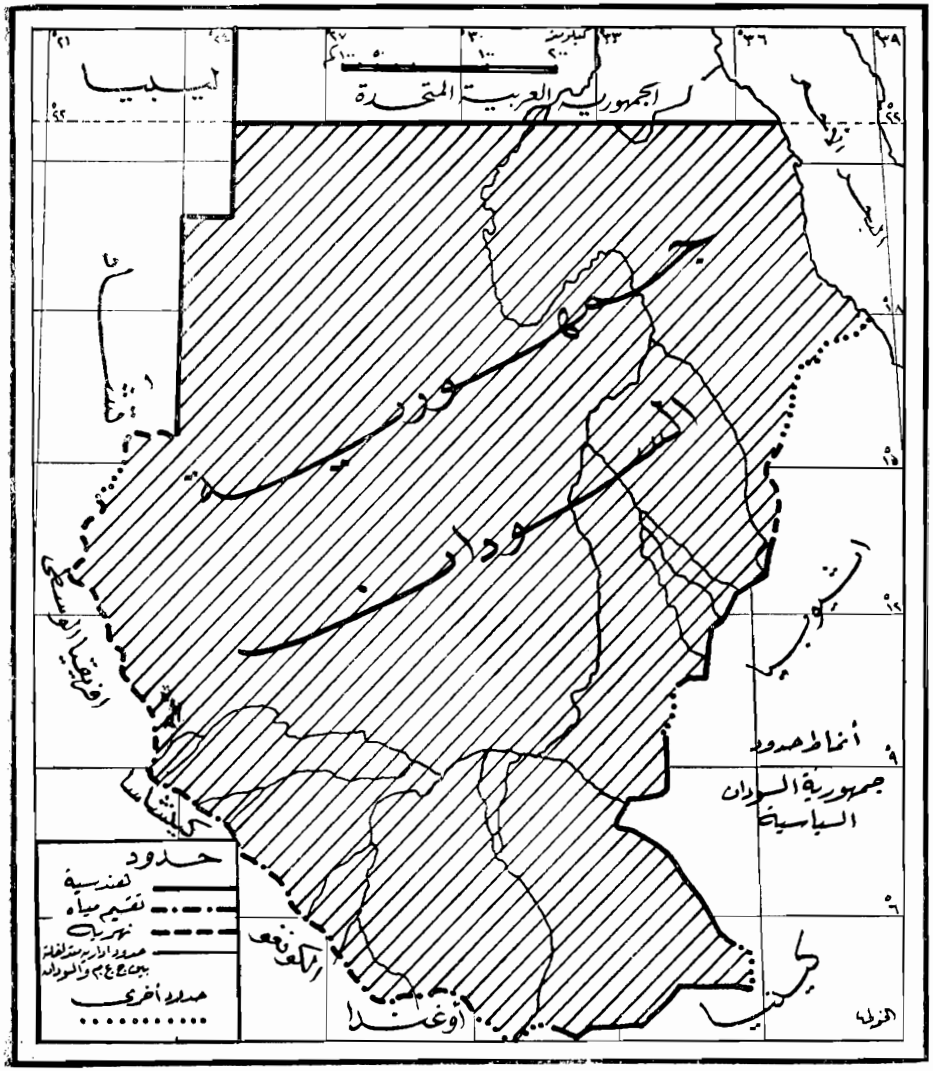

شكل (١٢)

حدود السودان

الحد اذن فى هذاالقطاع فلكى فى موضعيه الأول والثانى ، وان كان التعديل لهدف استراتيجى ، على حساب كل من مصر والسودان ، لمصلحة ايطاليا وقتئذ ، وكانت تحتل ليبيا .

الحد السياسى يتبع بعد هذا خط طول ٢٥° شرقا مرة أخرى أى أنه يأخذ اتجاها غربيا عند خط عرض ٢٠° شمالا . مسافة قدرها درجة طولية واحدة ، ثم يتجه بعد هذا الى الجنوب ..

٢ ــ ما وراء ذلك جنوبا يقع فى قلب المعمور الافريقى . وهو هنا النطاق الرعوى الذى يمتد عبر القارة من أقصى الغرب حتى المرتفعات الأثيوبية . وليس من اليسير اختيار خط حدود له ركيزة جغرافية قوية. فالتشابه فى أنماط الحياة هنا واضح على طول النطاق . والتحركات البشرية بين الغرب والشرق ،بل وبين الشمال والجنوب لا تنقطع . والامتداد الرأسى فى الوحدات السياسية من الصحراء الى المراعى ثم الى الغابات ، يصاحبه اختلاف وتنوع فى البيئة الطبيعية ، وهو اختلاف يمكن أن يؤدى الى تكامل وتنوع يعزز الوحدة ولا ينقضها .

ففى السودان ارتباط قوى رأسى تمثله حركات الهجرة الفصلية وتبادل عروض التجارة بين مناطق الرعاة والزراع ، ومن يجمعون بين الرعى والزراعة . ثم هناك تشابه على جانبى الحدود الغربية . والتاريخ الحضارى لهذا الجزء متصل وان كان التأثير العربى فى سودان وادى النيل أعمق ــ نسبيا ــ منه فى الغرب ، ويرجع ذلك الى عاملين :

أولهما : النيل باعتباره أقوى وسيلة للاتصال فى افريقية عبر الصحراء . ويمثل محورا حضاريا ، متعامدا على النطاقات النباتية فى افريقية شمال الصحراء ، ويربط بينها فى نفس الوقت .

والثانى : امتداد اليابس فى شرق القارة الى ما وراء خط الاستواء جنوبا ، بينما الغرب ينتهى دون خط الاستواء . وارتبط بهذا تعدد المداخل الحضارية العربية ، التى يمكن أن يتفاعل معها سودان وادى

النيل ، فضلا عن وقوعه فى طريق الحج الذى يسلكه مسلمو غرب افريقية .

ومع أن الحد السياسى الغربى فى هذا القطاع يتبع الفاصل المائى بين النيل ومجموعة شارى والكونغو ، الا أن هذا الالتزام ليس كاملا . ومن أوضح الأمثلة على ذلك منطقة جبل مرة فى دارفور ، حيث الفاصل المائى بين الروافد والاخوار المنحدرة الى كل من مجموعتى النيل وشارى ، وأهمها وادى عزوم ، ويتجه نحو الجنوب الغربى عابرا الحدود السياسية الى تشاد .

٣ ــ والتزام الحدود السياسية الفاصل المائى بين النيل والكونغو يبدو فى القطاع الجنوبى من الحدود الغربية فيما بين خطى عرض ١٠ ، ٥ شمالا . وهذا النطاق أقل سكانا من النطاق الرعوى السابق . وان كانت القبائل فى هذا الجزء لا تلتزم ــ ولا تستطيع أن تلتزم ــ الحدود السياسية .

واذا كان التقيد بالفواصل المائية فى هذا الجزء يعين على توقيع الحد السياسى ، الا أنه عمليا ليس عميق الدلالة من الناحية البشرية . فليست الأنهار هنا ظاهرة فصل جغرافى ، تتقيد بها القبائل فى تحركاتها . فكثيرا ما تعبر القبائل الحدود فى تجوالها بحثا عن المرعى . والمنطقة بهذا نسيج حضارى تتجه خيوطه بين الشمال والجنوب ، وبين الشرق والغرب عابرة خط الحدود ، بحيث تقلل من القيمة الحقيقية للحد السياسى ، وتدعو الى مزيد من التعاون بين الوحدات السياسية المتجاورة .

وقد أصبح هذا الباب الغربى المصدر الرئيسى لدماء وافدة الى السودان . ومن الصعب التحكم فى حركة التيار البشرى المتجه من الغرب الى الشرق ، فى هدفه الرئيسى أداء لفريضة الحج ؛ وأهدافه الفرعية ، بحثا عن مجالات أوسع للعمل الزراعى فى سودان وادى النيل . ولنا عودة الى هذا الموضوع .

٣ ـ الحدود الجنوبية

يشارك السودان من الجنوب الكونغو كنشاسا فى جبهة طولها نحو ٥٠٠ كيلو متر ، وأوغندا فى جبهة طولها نحو ٤٠٠ كيلو متر ، وكينيا فى الطرف الشرقى فى جبهة طولها نحو ٢٣٥ كيلو متر . وبهذا يصل طول هذه الحدود الى ما يقرب من ١١٥٠ كيلو متر .

١ ـ ويتبع الجزء الغربى الفاصل المائى بين النيل والكونغو ومتوسط ارتفاعه نحو ٨٠٠ متر ، وان زاد فى بعض الأجزاء عن الألف. وترجع أهميته ـ الى حد بعيد ـ الى وضعه المائى (الهيدروجرافى) . أما اذا نظرنا اليه من الناحية البشرية فسنجد شعبا كالزاندى مثلا ، تحيا قبائله فى كل من السودان والكونغو كنشاسا وافريقية الوسطى . وتشاهد هذه المنطقة تطورا اقتصاديا من أبرز مظاهره مشروع الزاندى لانتاج القطن فى الجزء السودانى من وطن شعب الزاندى مع غلات أخرى وتصنيع محلى لبعض انتاج المنطقة .

٢ ـ اما الجزء الأوسط فكانت تسوية الحدود فيه ـ وقتئذ ـ على حساب كل من مصر والسودان (١) واستطاعت بريطانيا فى أثناء الثورة المهدية ، أن تجبر أمين باشا حاكم المديرية الاستوائية باسم مصر على اخلاء مديرية خط الاستواء . وانسحب مع ستانلى فى عام ١٨٨٩ . وأرسلت بريطانيا حملة بقيادة لوجارد فى سنة ١٨٩٣ . واحتلت أوغندا متذرعة بالصراع الدينى بين البروتستانت والكاثوليك ، وبذلك وقعت منابع النيل الاستوائية تحت السيطرة الاستعمارية . والحدود هنا تعبر النيل عند خط عرض ٥ر٣° شمالا مارة فى أحد مواطن القبائل النيلية ، وهى الموطن الاوسط ، الذى يمتد من نمولى الى بحيرة كيوجا ، والى شماله الوطن الأكبر لهذه القبائل بين خطى عرض ٦° ، ١٢° شمالا فى

---

(١) على ابراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل ص ١٢٦ ـ ١٥٨ ط . الانجلو ـ القاهرة ١٩٥٨ .

جنوب السودان . ولهذه القبائل وطن ثالث يقع الى جنـوب الركن الشمالى الشرقى لبحيرة فكتوريا . ومن ناحية أخرى تحيا الجماعات النيلية الحامية ـ أو الشبيهة بها ـ كاللاتوكو والبارى فى السودان ، بينما أكبر أوطانها فى هضبة شرق أفريقية ـ فالحد على هذا الأساس ليست له الا دلالته السياسية . واذا كان من الممكن التمييز بعامة بين السهول المنخفضة فى أرض السدود ، وهى التى تقع الى شمال الحدود السياسية ، والهضاب الواقعة الى جنوبها فى أوغندا ، الا أن هـذا الانتقال لا يمثل عقبة لها خطرها فى حركة وحياة القبائل فى منطقـة الانتقال .

٣ ـ ولقد كانت الحدود المشتركة بين السودان وأغندا تمتد حتى بحيرة رودلف ، دون أن تدع بين السودان وكينيا أية صلة مباشرة . ولكن حدود هذه المنطقة تعرضت للتعديل فى عام ١٩٢٦ بضم مديرية رودلف (وتقع بين حافة تركانا وبحيرة رودلف) الى كينيا ، وأصبح الحد بين أوغندا وكينيا يتبع الفاصل المائى بين الانهار المنحدرة الى بحيرة رودلف والمنحدرة نحو النيل ، فهو بهذا يلتزم ظاهرة طبيعية ، بينما يبدو فى وضوح أن خط الحدود بين السودان وكينيا من رودلف غربا ليس الا خطا هندسيا مستقيما ، لا يتقيد بأية ظاهرة طبيعية أو بشرية .

وصحب تخطيط الحـدود الجنوبية نزاع سياسى بين السودان وبلجيكا . فقد ادعت بلجيكا الحق فى احتلال منطقة من بحر الغزال ومنطقة اللادو والرجاف على النيل . وبعد مفاوضات بين الطرفين تم الاتفاق على أن تظل منطقة بحر الغزال بكاملها جزءا من السودان ، وأن تؤجر منطقة اللادو للكونغو لضرورتها فى الملاحة النهـرية ، على أن يرتبط أمد الايجار بحياة الملك نفسه ، وبعدها تعود لحكومة السودان. ولم تكن بريطانيا تسمح ـ وقتئذ ـ لأية دولة أوربية أن تعترض طريق القاهرة ـ الكاب ، ولهذا رحبت بالايجار المؤقت ولم ترض بالاحتلال الدائم .

أما الحدود مع أوغندا فقد تم تخطيطها دون اثارة نزاع (١) ، فقد كانت بريطانيا عمليا ــ مسيطرة على كل من الطرفين .

٤ ــ الحدود الشرقية

تمتد هذه الحدود من خط عرض ٤ر٥ شمالا عن الطرف الشمالى لبحيرة رودلف الى خط عرض ١٨ شمالا عند رأس كسار على البحر الأحمر ، وتتعامد على المجارى المائية الرئيسية المنحدرة من المرتفعات الشرقية السوباط فى الجنوب ثم النيل الأزرق والعطبرة ، والى شمالها الاخوار الداخلية كالقاش وبركة .

فمن الناحية المائية هناك اتصال قوى بين النظام النهرى فى كل من أثيوبيا والسودان . ومن ناحية التضاريس لا نستطيع القول بأن الحدود تميز تمييزا كاملا بين الجبال فى أثيوبيا والسهول فى السودان : فهناك منطقة سهلية واسعة فى حوض السوباط الأوسط مقتطعة من سهول السودان وتتبع اثيوبيا سياسيا .

وتلتزم الحدود ــ فى طرفها الجنوبى ــ مجرى نهر كيبيش الذى يصب فى بحيرة رودلف ، ثم تنتقل الى المجرى الأعلى لنهر كوبو حتى التقائه بالبيبور ، ثم تتبع نهر البيبور مخلفة غربها منطقة مستنقعات ، وتعود بعد هذا فتنحرف شرقا متتبعة نهر بارو ، ثم تتجه شمالا وتنحرف شيئا فشيئا نحو الشمال الشرقى ، حتى اذا ما وصلت الى السهل الساحلى تعامدت عليه متجهة الى البحر .

ولعل الواقع التاريخى لهذه الحدود يلقى ضوءا على مشكلاتها : فمنطقة الحدود بين السودان واثيوبيا لا يمكن أن تقارنها بالجزء الغربى المقابل من حدود السودان . ذلك لأنها ــ أى الشرقية ــ منطقة معمورة لها من ظروف البيئة الطبيعية ما يرغب فيها السكان . واذا كان

---

(١) مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ٤٤٤ ط . دار الثقافة . بيروت ــ ١٩٦٥

بعض السكان فى هـذه الأجزاء يحترفون الرعى فطبيعته هنا تختلف ـ الى حد كبير ـ عن المناطق الجافة فى الغـرب بين النطاق الرعوى والصحراء فى الشمال . فليس من الغريب ـ بل لعله من الطبيعى ـ أن تكون هـذه المنطقة مجال التقاء سلمى أو صراع مسلح بين الهضبة والسهل . وجانب كبير من تاريخ هذه الأرض يمكن اختصاره فى هذه المعادلة : التفاعل بين الجبل والسهل .

وشاهد القرن التاسع عشر تطورا فى هذا الصراع ساهمت فيه أكثر من قوة محلية أو أوربية . وتعاقبت الهجوم فيه قوى صاعدة فى الهضبة مقبلة من السهل ، وقوى هابطة الى السهل مقبلة من الهضبة وكانت آخر مراحل هـذا الصراع فى القرن التاسع عشر على طول هذه الحدود : الحروب بين أثيوبيا والثورة المهدية من ناحية ، وبين أثيوبيا وايطاليا فى أقصى الشمال من ناحية أخرى . وعندما دخلت القـوات الثنائية السودان رحب بها الامبراطور منليك كجيران أزالوا الحكومة التى كانت سببا فى قتل سلفه . ولكنه ـ مع هذا ـ ظل يكسب وقتا ويطاول فى المفاوضـات التى جرت بينه وبين هارنجتون ـ معتمد بريطانيا فى أديس أبابا . هذا بينما ظل الرءوس الأحباش يغيرون من ناحية غمبيلا على السوباط ، والقـلابات على العطبرة ، وفازوغلى على النيـل الأزرق ، ويرفعون الأعلام الحبشية ليضعـوا حكومة السودان أمام الأمر الواقع . وقد تساهل هارنجتون مع الامبراطور فى مسألة أرض بنى شنقول ـ بين النيل الأزرق والحدود الحالية فى الحبشة ـ وتركها لاثيوبيا بالرغم من أنها كانت جزءا من السودان ، ولها شهرتها بمعـدن الذهب . وتشبث بها الامبراطور وفى مقابل ذلك منح امتياز استغلال المنطقة لشركة انجليزية (١) . ويبدو هذا الجـزء من الحدود كقوس لا يتمشى مع الاتجاه العام للحدود نحو الشـمال الشرقى . فتسوية الحدود من هذه الناحية اقتطعت من السودان أرضا ضمتها الى اثيوبيا.

---

(١) مكى شبيكة : نفس المرجع ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤ .

وكانت ايطاليا وقت مفاوضات الحدود تسيطر على ارتريا ، وتمتد حدودها من بلدة أم حجار فى الجنوب حتى رأس كسار فى الشمال . وكان مسلك حكومة ايطاليا من أول الأمر تعاونا مع بريطانيا . فقد ظلت ايطاليا محتفظة بكسلا فى السودان الشرقى الى أن سلمتها للجيش . وبعد مفاوضات بين بريطانيا وايطاليا تم الاتفاق على تفويض حاكم السودان العام وحاكم ارتريا فى تعيين الحدود . وتم هـذا على وفاق وتعاون (١) . ويتخذ الجزء الجنوبى من قمم الجبال المحلية معالم : فهو يتجه من أم حجار الى جبل أبو جمل فى غرب القاش ، ثم يتبع بعد هذا الفاصل المائى بين القاش وبركة ، ثم ينحرف نحو الشمال الشرقى الى البحر الأحمر تاركا دلتا بركة ومجراه الأدنى داخل حدود السودان .

وتسكن هذه المنطقة قبائل البجاة . وسبق القول أن البنى عامر مقسمون بين السودان وارتريا ، وكذلك فى ارتريا بطـون من قبيلة الشكرية التى تسكن أرض البطانة فى السودان .. والنزاع لا يكاد ينقطع بين رعاة البنى عامر ورعاة الهدندوة حول الماء والمرعى . وتنظم الحكومتان حركة القبائل والأفراد عبر الحدود السودانية الارترية . وتيار الهجرة فى الوقت الحاضر يتجه من ارتريا الى السودان . وان كان السودان لا يرحب بهذا التيار ـ فى بعض الظروف ـ بل يقاومه لأسباب اقتصـادية واجتماعيـة . وأحيانا يقبل اللاجئين لأسـباب انسانية . أما الخلاف بين القبائل الرعوية ، سـواء أكانت فى ارتريا (المديرية الغربية) أم فى السودان الشرقى ـ فتحل فى اجتماع سنوى يحضره نظار القبائل ومشايخها والحكام الاداريون فى غابة تمنتى فى الطـرف الشمالى الغربى من دلتـا القاش حيث المقـر الرئيسى لنظارة قبيلة الهدندوه أكبر قبائل البجاة فى شرق النيل .

هناك اذن روابط ادارية واقتصادية واجتماعية عبر الحدود . بحيث أن الحد السياسى هناك لا يمكن أن نجد له سندا جغرافيا دقيقا من الناحيتين الطبيعية والبشرية . واذا ما كان هناك تباين جغرافى بين جبال

---

(١) مكى شبيكة : نفس المرجع ص ٤٤٣ .

ارتريا وسهول السودان ، فان منطقة الحدود تمثل الانتقال بين الجبل والسهل .. وليس من اليسير أن نختار فيها معالم معينة ، ثم نعتبرها فاصلة بين المنطقتين . فاذا أضفنا الى ذلك الروابط الثقافية والدينية القومية بين ارتريا والسودان حيث يسود الاسلام وتنتشر طرق دينية واحدة ، أهمها هنا الطريقة الختمية (الميرغنية) ، استطعنا أن نكون صورة واضحة المعالم للروابط القوية بين ارتريا والسودان الشرقى . وهى روابط لا تستطيع الحدود السياسية أن تلغى وجودها أو تقلل من أهميتها .

يمكن بعد هذا أن نجد فارقا كبيرا بين الحدود الشرقية والغربية للسودان . فالطابع الغالب على الحدود الغربية أنها تسير فى جزئها الأوسط فى أرض سهلة . وهذا القسم هو أكثر أقسام الحدود الغربية حيوية . وتأثيره فى السودان أقوى من تأثير الصحراء فى الشمال ، والغابات فى الجنوب . والتشابه فى الظروف الطبيعية وكثير من مظاهر الحياة البشرية واضح على جانبى الحدود الغربية . فلا ينتظر اذن حدوث تبادل اقتصادى عبر هذه الحدود له قيمته بين السودان وما وراءه غربا . وان كان تيار الهجرة البشرية ينبع من الغرب متجها الى سودان وادى النيل . وهو أقوى مظاهر الارتباط حتى الآن . والوضع يختلف عن ذلك فى الشرق . فأثيوبيا بيئة جبلية تتباين ظاهراتها الطبيعية والبشرية عن السودان . وانعكس هذا على انتاجها الاقتصادى مما يجعل المجال أوسع لتبادل بعض السلع بين السودان وأثيوبيا . ولعل من أهم هذه السلع البن من أثيوبيا الى السودان .

فهنا نجد المتناقضات والعلاقات الجغرافية :

١ ــ أثيوبيا تتباين اقتصاديا مما يدعو الى التبادل ولكنها تختلف حضاريا مع السودان .

٢ ــ غرب أفريقيا يتشابه من بعض الوجوه حضاريا مع السودان ، وبخاصة من ناحية الدين مما يدعو الى التعاون . ولكن التشابه

الاقتصادى مع السودان من ناحيـة أخرى يضعف من شأن الروابط الاقتصادية .

٣ ـ وتتكامل الصورة اذا أضفنا الى ذلك تشابها حضـاريا بين الجمهورية العربية المتحدة والسودان يمكن أن يفيد من عوامل التشابه والتعاون الحضـاريين ، تدعيما للروابط وبخاصـة فى مجـال البناء الاقتصادى الحديث .

٤ ـ هذا بينما تهبط قـوة التفاعل بين السودان ومنابع النيـل الاستوائية لتصل ـ أحيانا ـ الى صورة سلبية أو عدائية ، يمثلها اتخاذ بعض الأقطار الاستوائية مراكز لمحاربة الوحدة القومية فى السودان ، وتدعيم الحركات الانفصالية فى السودان الجنوبى ، وان كان من الممكن أن تقل هذه السلبيات مع تطور الوعى الجديد الى التعايش السلمى ، واحترام كل دولة للكيان القومى لجيرانها دون تدخل .

ويمكن بمتابعة تقييم الروابط بين السودان وجيرانه من الشمال والشرق والجنوب والغرب ، أن نرى فى وضوح وموضوعية ، أن هذه الروابط أقوى ما تكون بين الشمال والجنوب . وأنه من الممكن ، عن طريق الاستفادة من أوجه التشابه والتباين ، وضع صورة جديدة للعلاقات الافريقية عامة ، والافريقية الاسلامية خاصة ، ومؤكدا دور السودان فى المجالات العربية والافريقية والاسلامية والانسانية العالمية .

٥ ـ جبهة السودان البحرية

١ ـ من الناحيـة الدولية الرسمية تمتد هذه الجبهـة من خط عرض ١٨° الى ٢٢° شمالا . ومن الناحيـة الادارية تمتد الى شمال خط ٢٣° شمالا بقليل عند بدء الشلاتين وشأنها شأن الحدود البحرية عامة تعتبر حدا طبيعيا من الدرجة الأولى .

ولكن بالنسبة الى مساحة السودان نجد هذه الجبهة ضيقة . ففى السودان يقابل الميل الساحلى ١٩٣٥ميـلا مربعا من المساحة ، بينما

ينخفض هـذا الرقم ـ على سبيل المثال ـ الى ١٠٦ فى فرنسا والى ٢٨ فى ايطاليا .

٢ ـ واذا ما قارنا فى أفريقية بين الدول المطلة على البحر الأحمر والمحيط الهندى ، لرأينا أن الجبهة البحرية منسوبة الى المساحة تصل الى أدناها فى السودان . وجمهورية الكونغو كنشاسا هى الصورة المقابلة للسودان على المحيط الاطلسى وفيها يبلغ التناقض أقصاه عند مصب النهر حيث تتزاحم دول متعددة ، وتترك هذه المساحة الداخلية الضخمة مختنقة ، وكل قطاع فيها يبحث عن مخرج بربطه بالعالم الخارجى .

من هذه الزاوية تستطيع أن تجد جانبا من تفسير مشكلة جنوب السودان : ففى الجنوب عمق نسبى فى القلب استطاع الاستعمار أن يستغله فى اضعاف حوافز الجنوب الى الاتصال بالعالم الخارجى عن طريق الشمال . وهى نفس المشكلة التى نجدها فى اقليم كاتنجا ، من حيث القدرة على الاتصال بالعالم الخارجى عن طريق شبكة مواصلات غير قومية . واذا كان من الممكن ـ رغم سلبيات الجهود الاستعمارية ـ أن يقوى النسيج الحضارى الأفقى فى السودان فى النطاق الرعوى ، وأن يقوى النسيج الحضارى المتعامد عليه ـ متوازنا معه ـ رابطا بين مصر والسودان ، وأن تصير الجبهة البحرية نافذة يطل منها السودان الشمالى والأوسط على العالم الخارجى ، فان السودان الجنوبى كان أبعد الأجزاء ـ نسبيا ـ عن هذه الجبهة . وهذه الظاهرة الطبيعية هى التى استغلها الوجود البريطانى ـ نصف قرن ـ ليدعم ، ان استطاع ، روابط الجنوب مع وسط وشرق أفريقية ، ويعزله ان استطاع عن الشمال . واستغل منطقة السدود ليحول بها بين تدعيم الروابط بين الشمال والجنوب . من هنا نجد أن الجبهة البحرية الضيقة فى السودان لم تجد من بريطانيا من العناية ما يربطها بكل مديريات السودان . وظلت شبكة الخطوط الحديدية مقتصرة على الشمال والشرق وأجزاء من الغرب ، خاضعة لحاجات الاقتصاد الذى شكلته بريطانيا من انتاج

المواد الأولية الزراعية والرعوية ، دون استجابة واعية لحاجات التماسك القومى الذى تقوم فيه شبكة المواصلات ـ كالشرايين ـ رابطة ـ ما استطاعت ـ بين أجزاء الجسم السودانى .

٣ ـ والسودان فى تاريخه الطويل يستطيع أن يتصل بالبحر والتجارة العالمية بطريقين رئيسيين :

الأول : يتبع وادى النيل شمالا الى مصر ثم البحر المتوسط .

الثانى : نحو الشرق الى البحر الأحمر ثم أعالى البحار فيما وراءه شمالا وجنوبا .

والطريق الأول أطول نسبيا ، وتعترضه عقبات الجنادل ، وأخطار المرور فى عهود الاضطراب السياسى . ولكنه مع هذا كله كان النافذة الرئيسية التى أطل منها السودان على العالم فى العصور القديمة والوسطى ، وصدر العصور الحديثة . ففى مصر قامت أسواق تتوافر فيها السلع الأوربية ، ومن الممكن أن يتم فيها التبادل بين الانتاج المدارى الاستوائى ، والانتاج المعتدل الدافىء وما وراءه شمالا ، وأن يحصل السودان على المصنوعات وأن يبيع انتاجه من المواد الأولية : رعوية وغابية وحيوانية . ولا زالت بقية مصنوعاته المحلية من هذه الطرق القديمة تنبض بالتجارة فى الصحراء الشرقية ، وعلى طول النيل، وفى قوافل الصحراء الغربية .

أما الجبهة البحرية الشرقية ، فبينها أولا وبين قلب السودان ، سلسلة جبال البحر الأحمر ، بارتفاعها ووعورتها وجفافها وقلة سكانها ومياهها . والى شرقها سهل ساحلى يتراوح اتساعه بين عشرة وعشرين كيلو مترا تتناثر فيه مناطق الاستقرار البشرى ، حيث تتوافر موارد المياه تحملها الاخوار الجبلية ، منحدرة فى سرعة من الجبال القريبة . وتعتمد الثغور التى قامت على طول هذا الشاطىء على مورد من هذه المياه . فبور سودان ـ مثلا ـ تعتمد على مياه خور أربعات . وطوكر

تعتمد على الآبار التى تغذيها مياه خور بركةفى جريانها الفيضى الفصلى.

٤ ــ وتمتد على طول الساحل السودانى سلسلة مرجانية تسمى مرجان خط الساحل .. والى شرقها ــ فى البحر ــ حاجز مرجانى خارجى . والى غربها ــ فى السهل الساحلى ــ تلال ساحلية تغطيها تكوينات مرجانية (١) .

والشطوط المرجانية عائق له خطره على المواصلات البحرية : فبين خط مرجان والساحل والحاجز الخارجى مياه عميقة . وتشق الحاجز الخارجى فتحات هى الوسيلة الآمنة للوصول الى عرض البحر . ووجود ثغرة فى الحاجز الخارجى تعتبر من أهم الوسائل التى تحدد قيمة المرفأ، لأن النشاط المرجانى ، وتكون الشعاب والشطوط المرجانية ، يحتاج الى مياه صافية ملحة .

فى هذا الضوء يمكن أن ندرك الصلة بين العمليات الطبيعية الآتية :

١ ــ أن يصب خور أو واد فى البحر ويلقى فيه رواسبه .
٢ ــ هذه الرواسب تكون ظروفا غير ملائمة لنمو المرجان .
٣ ــ تتكون أمام مصب الوادى ــ بناء على ذلك ــ فتحة فى الحاجز المرجانى .

ويترتب على ذلك . من الناحية البشرية ما يأتى :

١ ــ توافر مورد مائى يمثله الماء الجارى الذى يحمله الخور أو ما يغيض فى الأرض من ماء ، يمكن استخراجه بحفر الآبار .
٢ ــ توافر فتحة المرجان التى تساعد على الوصول الى عرض البحر .
٣ ــ توافر مكان آمن بين الحاجز المرجانى والشاطىء يمكن أن

---

(١) صلاح الدين الشامى : بور سودان ص ١٠ ــ ١٦ ط . مكتبة مصر ــ القاهرة ١٩٥٨ .

تأوى اليه السفن . وهذه الظروف جميعا تساعد على تحديد المواضع الملائمة ، لقيام الموانى على السهل الساحلى .

٥ ــ والبحر الأحمر ــ بامتداده الطولى الذى يربط بين المناطق الاستوائية والموسمية جنوبا والمعتدلة الدفيئة وما وراءها شمالا ــ شريان له خطره فى التجارة الدولية . واذا كان التبادل الأفقى بين الأقطار المطلة على البحر الأحمر محدودا ــ اقتصاديا ــ فان التبادل الرأسى بين العروض المتباينة هو الأضخم والأعمق أثرا ، وقد ازداد خطرا بعوامل رئيسية أهمها :

١ ــ شق قناة السويس فى عام ١٨٦٩ .

٢ ــ كشف الثروة البترولية الضخمة فى منطقة الخليج العربى ونقل خاماته الى العالم الغربى فى أوربا وما وراءها .

٣ ــ التطور الحضارى فى دول العالم الثالث فى آسيا وأفريقية ، وزيادة حجم التبادل التجارى بين الدول النامية هناك والدول المتقدمة فى أوربا والعالم الجديد .

واذا كانت الموانى المطلة على البحر الأحمر قد قامت بدور كبير فى تموين السفن بالفحم ، وقت أن كان الوقود الرئيسى للسفن ، فان هذه الأهمية تراجعت أمام انتشار الوقود السائل ، وقل اعتماد السفن على موانى الخدمات فى البحر الأحمر ، بينما زادت أهمية الظهير القارى ، وما فيه من سلع أولية أو مصنوعة يمكن أن تساهم فى التجارة العالمية..

وهذا الميزان يمكن أن نزن به تطور أهمية موانى الجبهة البحرية السودانية : فهى تستمد أهميتها الرئيسية الآن من البر ، لا من البحر ، ومن الظهير القارى بما فيه من نشاط اقتصادى ، لا من تجارة العبور وخدمة السفن .

٦ ــ ومن الناحية الاستراتيجية لم يكن هذا المدخل مصدر خطر عسكرى على السودان . ولم يكن منطقة احتكاك كالحدود الحبشية .

وهو ــ ايجابيا ــ يربط بين السودان ومهد الاسلام فى الجزيرة العربية. والغالب على هذه الجبهة البحرية أن تزدهر فيها ميناء واحدة فى وقت واحد : فى العصور الوسطى والحروب الصليبية ازدهرت عيذاب ، عندما تراجع مركز الثقل فى عبور البحر الأحمر من خليج السويس نحو الجنوب ، نتيجة ضغط وأخطار الحروب الصليبية . وعند زوال هذا الخطر أخذت شعلة الحياة تذوى فى عيذاب حتى أصبحت أطلالا دارسة ؛ ثم ورثتها سواكن كثغر للنطاق السودانى جنوب الصحراء ؛ ثم ورثتها بور سودان ولها روابطها الأعمق بالظهير السودانى.. وهى أهمية لا تزال آخذة فى النمو ..

فالمدخل البحرى للسودان له ــ حتى الآن ــ طبيعة لا يتحمل معها فى وقت واحد قيام أكثر من ميناء رئيسية واحدة .. موانيه الرئيسية تتعاقب تاريخيا ، ولا تتعاصر .

٢ توزيع المراكز الحضرية في السودان

المراكز الحضرية : أقسامها

اختار المشرفون على تعداد السكان الأول للسودان ٥٥/١٩٥٦ (١) ثمانية وستين مركزا حضريا بينها شكل (١٣) وكان التعداد فيها شاملا بينما كان فى بقيـة السودان ـ مع استثناءات محدودة ـ بطريقـة العينات .

وكان اختيار هذه المجموعة من المدن فى مرحلة مبكرة من مراحل التعداد ، لم يكن فيها عدد السكان وتوزيعهم معروفا بدقة ، ولم تكن هذه المدن ـ من ناحية أخرى ـ أكبر ما فيها السودان . فبعضـها اختير ـ رغم صغره ـ باعتباره بؤرة منطقة معينة يقوم فيها بوظيفة

---

(١) أصدرت جمهورية السودان مطبوعات بالانجليزية ـ ترجم بعضها الى العربية ـ عن تعداد السكان الاول فى السودان ٥٥/١٩٥٦ من اهمها :

ا) التقرير النهائى فى ثلاثة مجلدات . صدر أولها فى مارس ١٩٦١ .

ب) تقرير عن الطريقـة التى اتبعت فى التعـداد فى مجلدين . صـدر أولهما فى نوفمبر ١٩٦٠ .

ج) تقرير لفائدة مخططى المدن فى مجلدين (ابريل ١٩٦٠) يختص أولهما بالجانب الاحصـائى وفى الثانى خرائط المـدن الثمان والستين التى شملها التعـداد الكامل .

هذا الى مجمـوعة من التقـارير لها بيـان فى ص ١١٠ من الكتاب الآتى الذى أصدرته الجمعية الفلسفية فى السودان بالاشتراك مع مصلحة الاحصاء السودانية فى يناير ١٩٥٨ :

The Population of the Sudan, Report on Sixth Annual Conference.

ومن بين الدراسات المنشورة فى هذا المؤتمر بحث له اهمية تاريخية خاصة هو

Jakob Isler & Rix H. Rotach, A Bibliographical Summary of pre-Census Efforts in Sudan.

ويحصى هذا البحث الدراسات السكانية التى أجريت عن السودان كوحدة وعن كل مديرية على حدة قبل التعداد الاول .

المدنية وبخاصة من الناحية الادارية ، بينما تركت مراكز أكثر عـددا باعتبارها قرى كبيرة . وبهذا نستطيع أن نفسر كيف اختيرت كاتيرى ومريدى وياى فى المديرية الاستوائية ضمن هذه المجموعـة واعتبرت مدنا مع أن عدد السكان فى كل منها يقل عن ألف ، بينما تركت مراكز مثل مايرنو ــ على النيل الأزرق ــ مع ان عدد سكانها نحو أربعة عشرة ألفا واعتبرها التعداد قرى كبيرة (١) .

وبين التعداد أن المجموع الكلى لسكان السودان ١٠٫٢٦٢٫٥٣٦ نسمة (٢) ، منهم ٨ ٪ سكان حضر (٣) ، وهى نسبة لا زالت منخفضة بالمقارنة مع معظم دول الوطن العربى حيث المعدل العام لسكان الحضر نحو ثلث المجموع الكلى للسكان (٤) . وفى السودان مدينة واحـدة ــ هى أم درمان ــ يزيد عدد سكانها عن مائة ألف . وتقرب منهـا الخرطوم وبلغ عدد سكانها أكثر من ٩٣ ألفا .

وقسم التعداد المدن الثمان والستين الى ثلاث مجموعات أو «نواد» Clubs على أساسين من الأهمية والحجم (٥) .

١ ــ نادى الاثنتى عشرة : وكان اختيارها على أساس من أهميتها

---

(١) جمهورية السودان : خريطة توزيع السكان رقم (طبوغرافيا نمرة خ ٩٧٩ ــ ٥٨) مقياس ١ : ٤٠٠٫٠٠٠ .

(٢) Barbour, K.M., The Republic of the Sudan, p. 105, Univer. of London Press, London, 1961.

ويعنى الكتاب بالدراسة الجغرافية العامة والاقليمية للسودان . ويخصص الفصل السابع من كتابه من ص ٩٠ الى ص ١٠٨ لدراسة السودانيين فى الريف والحضر مع المقارنة بين المديريات .

(٣) تعداد السكان الاول فى السودان ١٩٥٦/٥٥ . التقرير النهائى . المجلد الاول ص ٥

(٤) عزة النص : أحوال السكان فى العالم العربى . ص ١٤٤ ــ ١٤٥ . مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ١٩٥٥ .
تعـداد السكان الاول فى السودان ١٩٥٦/٥٥ . التقرير النهـائى . المجلد الاول ص ١٧ من المقدمة . ويراجع ايضا : تقرير لفائدة مخططى المدن ج ١ ص ٥ .

(٥) كروتكى (كارول جوزيف) عشرون حقيقة وحقيقة عن السودانيين ص ٣٨ . نقله الى العربية احمد عثمان اسحق . الخرطوم . يوليو ١٩٥٨ .

الخاصة ويضم مدن العاصمة المثلثة وبقية عواصم المديريات ـ ما عدا الدامر العاصمة السياسية للمديرية الشمالية ـ وواو عاصمة مديرية بحر الغزال ـ ثم عطبرة وادى حلفا وبورسودان ولهذه المدن الثلاث أهميتها فى المواصلات .

٢ ـ نادى الخمس والثلاثين : يضم المدن التى يبلغ عدد السكان فى كل منها خمسة آلاف فأكثر ، بما فيها مدن المجموعة الأولى .

(شكل ١٣)

٣ — بقية المدن الثمان والستين التى يقل عدد السكان فى كل منها عن خمسة آلاف (ملحق ١) .

اهداف البحث :

ويحاول هذا البحث دراسة توزيع هذه المراكز الحضرية :

— هل لهذا التوزيع محاور ؟

— ما ضوابط هذا التوزيع ؟

— ما مظاهر التفاعل بينها ؟

— هل من الممكن الافادة من ذلك فى جغرافية المدن التطبيقية فى السودان من حيث الترابط الداخلى بين أجزائه وتوثيق صلاته العربية والافريقية ؟

ثانيا ـ محاور التوزيع

يمكن أن نميز فى توزيع المراكز الحضرية فى السودان بين المحاور الآتية شكل (١٤) :

١ — المحور النيلى الممتد من الجنوب الى الشمال .

٢ — المحور الرعوى الممتد بين الغرب والشرق فيما بين خطى عرض ١٠ ، ١٥ شمالا تقريبا .

ويلتقى هذان المحوران الرئيسيان فى رأض الجزيرة حيث القلب الاقتصادى للسودان .

٣ — أطراف هضبة الحجر الحديدى فى الجنوب الغربى ويشمل مدن يرول ورمبيك وتونج وواو . وعلى نفس المحور تقع توريت شرقى النيل .

٤ — محور الزاندى فى أقصى الجنوب الغربى ويوازى المحور السابق ويشمل مدن يای ومريدى ويامبيوونزارا .

٥ — محور البحر الأحمر وتمثله مدن السهل الساحلى والموانى : بور سودان وسواكن ثم طوكر .

وبين هذه المحاور تفاعل واضح : فقد تكون المدينة واقعة على أكثر من محور كمدن أرض الجزيرة والنيل الأبيض . وتقع مدن المحور الرابع على أطراف هضبة الحجر الحديدى كما تقع بعضها على الروافد الكبرى لبحر الغزال . كما يتأثر نمو بور سودان بالتطور الاقتصادى للسودان . ومع هذا التفاعل تتباين أهمية هذه المحاور . ويمكن أن نميز فى بعضها بين أقسام فرعية ، على أسس من التأثر بعوامل طبيعية : كموارد المياه والظاهرات الجيومورفولوجية ؛ وعوامل بشرية : كطرق المواصلات والتنمية فى مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية والتطور السياسى .

١ ـ محور النيل :

ومع أن المدن النيلية تشترك جميعا فى أساس واحد هو وقوعهاعلى النهر الا أن هناك ضوابط جغرافية تحدد مواضعها . وأهم هذه الضوابط :

١ — مدى اتساع الأرض الزراعية : فالصحراء فى المديرية الشمالية تقترب أحيانا من النيل حتى تشرف عليه اشرافا مباشرا ، وتبتعد عنه أحيانا لتعود الى الاقتراب منه . وتصبح أجزاء الوادى ـ شمال الخرطوم ـ قطاعاتتختلف ضيقا واتساعا ، كما تختلف المساحة المروية فيها من عام الى عام مع ذبذبات الفيضان ومدى الاستفادة من مائة . ولكل مدينة من مدن المديرية الشمالية ـ بعامة ـ نطاق أو مجال من هذه الأراضى الزراعية تتناثر فيه مجموعة من القرى تتركز مصالحها فى المدينة . من نماذج هذه المدن :ً شندى وبربر وارجو وكريمة .

٢ — توزيع الجنادل : ويبدو هذا فى الأجزاء الشمالية والجنوبية من المحور النيلى فى السودان ـ فالجنادل عقبة لها خطرها على

الملاحة النهرية . وتمثل انقطاعا فى المواصلات يحتاج الى تغيير فى وسيلتها مما يدعو الى قيام مدينة (١) :

(أ) من أمثلة ذلك وادى حلفا عند النهاية الشمالية للجندل الثانى ، وتربطها مواصلات نهرية منتظمة مع بلدة الشلال

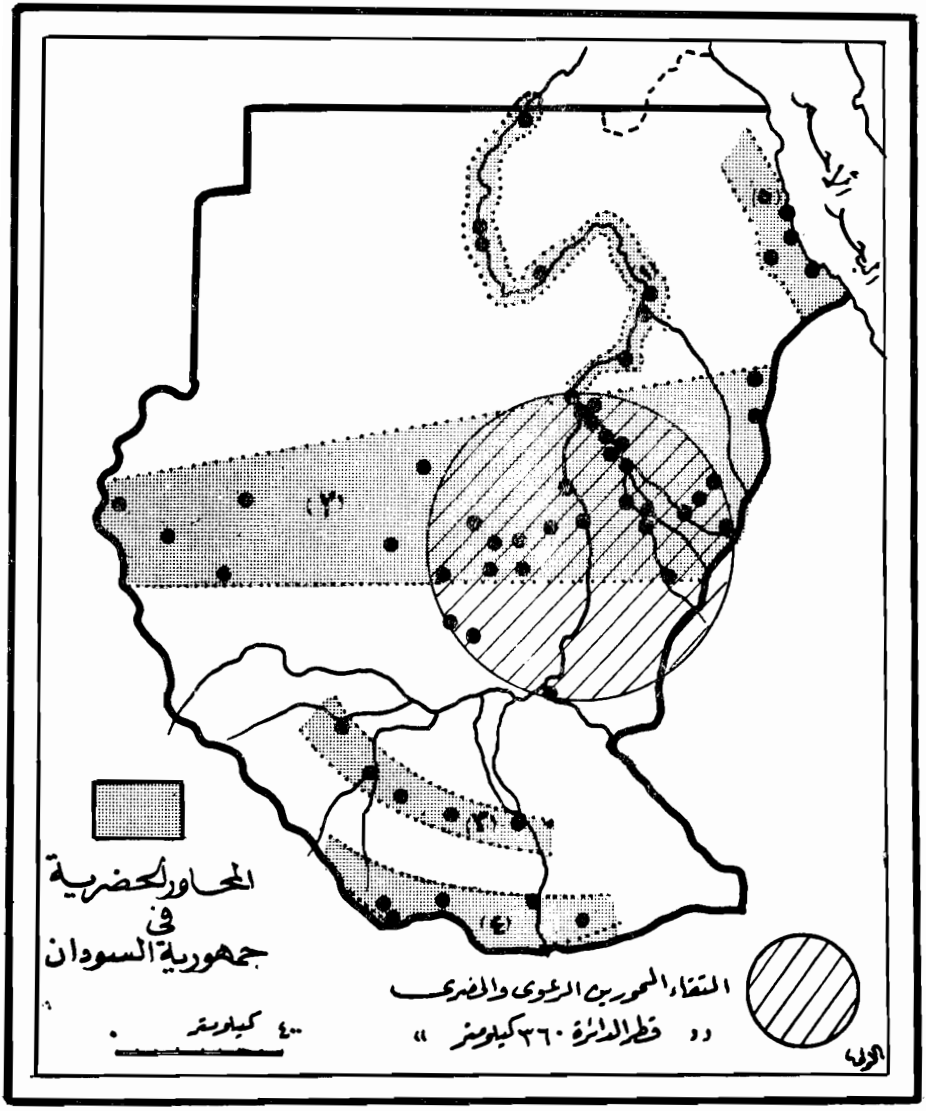

(شكل ١٤

(١) Vidal de la Blache, Principles of Human Geography, p. 473, translated from French by Bing Ham, M.T., London, 1959.

جنوب أسوان عند النهاية الجنوبية للجندل الأول . وحلفا نقطة التقاء المواصلات النهرية من الشمال بالخط الحديدى نحو الجنوب . كذلك كريمة نقطة انتقال المواصلات الحديدية التى تربطها بأبو حمد بالمواصلات النهرية التى تربطها بكرمة .

(ب) فاذا انتقلنا الى الطرف الجنوبى للنيل فى السودان عند النهاية الشمالية لمساقط فولا وجدنا جوبا نقطة التقاء المواصلات النهرية الآتية من كوستى شمالا ، بالبرية المتجهة الى الكونغو وهضبة البحيرات الاستوائية .

٣ — اتجاه النيل وروافده والأدوية المنتهية اليه : تعتبر مجامع الأنهار من المواقع المفضلة لقيام المدن وان كان مجرد الموقع ليس سببا فردا لقيام المدينة وانما تدخل عوامل أخرى كالعلاقات المكانية ودرجة النمو الاقتصادى بالأقليم وأوضح مثال فى السودان لهذا الضابط الجغرافى ، مجمع النيلين الأبيض والأزرق حيث قامت الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحرى . ومن قبل ، شاهد هذا الموقع قيام أكثر من عاصمة فى مواضع متعددة منه مثل سوبا عاصمة مملكة علوة ، وحلفاية الملوك عاصمة العبد اللاب . الملكال مثال آخر لمدينة قامت قرب مجمع السوباط بالنيل الأبيض . ويمثل مجمع العطبرة بالنيل الأعظم رأس طريق له أكثر من شعبة تتوغل فى أرض البجاة وما وراءها الى ساحل البحر الأحمر .

وكانت طرق القوافل الوسيلة الرئيسية للنقل فى السودان الى فجر القرن العشرين واعتمدت هذه الطرق — فى بعض مراحلها على روافد النهر والأودية المؤدية اليه ، كما استفادت من اتجاهات المجرى . ويبدو هذا فى منطقة النيل النوبى حيث يقترب النيل

من البحر الأحمر . وفى القطاع الممتـد من مجمع النيلين الى أبو حمد قامت مدن ـ مثل بربر وشندى ـ بدور كبير فى تجميع التجارة السودانية وتصـديرها اما عن طريق الشـمال عابرة صحراء العطمور الى الأسـواق المصرية أو متجهـة شرقا عبر الصحراء الى سواكن على شاطىء البحر الأحمر (١) .

٤ — الخطوط الحديدية : وقد سبقت الاشارة الى جانب منها من حيث علاقته بالجنادل والمجارى المائية . فعلى المحور النيلى مدن ازدهرت للدور الذى تقوم به المواصلات الحديدية . وأهم هذه المدن عطبرة وهى المركز الرئيسى للمواصـلات الحـديدية فى السودان . ومزايا الموقع فيها تشبه ما سبق قوله عن بربر من اقتراب النيل من البحر الأحمر فضلا عن وقوعها على مجمـع العطبرة والنيل . وتحيـا الغالبية العظمى من سكان المدينـة ـ بطريق مباشر أو غير مباشر ـ على هذه الوظيفـة الرئيسية للمدينة . والخرطـوم ـ كعاصـمة ـ لها مركزها المتوسط فى المواصلات بين السودان الشمالى والأوسط . وفى كوستى تلتقى المواصلات النهرية الصاعدة فى النيل الأبيض وبحر الجبل الى جوبا بشبكة الخطوط الحديدية فى السودان الأوسط والشمالى.

٥ — الأهمية الدينية : ومن نماذج هذه المدن الدامر وكانت ذات منزلة دينية فى القرن التاسع عشر باعتبارها المركز الرئيسى لطريقة المجاذيب . وقد عرض بركاردت (١٨١٤) الرحالة السويسرى جانبا من أهميتها الدينية فى رحلته الى النوبة (٢) .

---

(١) بوركهارت (جون لويس) : رحلات بوكهارت فى بلاد النوبة والسودان . ص ١٨٤ ، ١٨٥ ويوضح فيها أهمية بربر . كما يعقد دراسة مفصلة لأهمية شندى من ص ٢٣٩ وما بعدها الى ٢٥١ وعلاقة هذه المدن بقوافل سواكن وسنار ودارفور فى صدر القرن التاسع عشر ترجمـه الى العربيـة فؤاد اندراوس . منشورات الجمعيـة المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٦٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٠٥ ـ ٢٠٩ .

وبعد قيام الخرطوم كعاصمة اتخذ كثير من رؤساء الطـرق الصوفية الكبيرة فيها مراكز استقـرار ، وان احتفظ بعضهم بالمراكز الأولى التى نشأت فيها طرقهم أو ازدهرت . وبذلك انتقل مركز الثقل الدينى فى السودان من المديريات الى الخرطوم وقلت ــ تبعا لذلك ــ أهمية هذا العامل على قيام المدن. ويمكن أن نذكر مثالين لذلك : أولهما الطريقة الختمية وكان ازدهارها من قرية الختمية التى يشرف عليهـا جبل كسلا فى السـودان الشرقى ، والثانى الانصار وكان انتشار الطريق من جزيرة أبا فى النيل الأبيض . فمع أن كلا من الطريقتين ترعى المركز الذى انتشرت منه وعرفه الاتباع فى أول الأمر ، الا أن مركز الاقامة الرئيسى لرؤساء هذه الطرق أصبح فى العاصمة المثلثة .

على هذا الضـوء يمكن أن نميز فى المحور النيلى بين الأقسـام الآتية :

١ ــ النيل النوبى : ويبدو فيه تأثير الجفاف من حيث شدة ارتباط المدن بالنهر واعتمادها عليه ومدى اتسـاع الأرض الزراعيـة وتوزيع الجنادل واتجاهات الأودية الصحراوية ومجامع الروافد والأدوية بالنيل ونظام المواصلات وتطوره .

٢ ــ النيل الأزرق والأبيض : ويبدو فيهما تأثير امكانيات الزراعة وأنواع التربة ــ وسنعرض لها بعد قليل ــ ونمط المجارى المائية ومجامع الروافد بالنيل ونظام المواصلات .

٣ ــ بحر الجبل : ويمكن أن نميز فيه قطاعين :

(أ) القطاع الأدنى فى منطقة السدود وليس فيه ــ فى الوقت الحاضر ــ أى مركز حضرى .

(ب) القطاع الأوسط : وهو منطقة الانتقال بين المجرى الأدنى فى منطقة السـدود والأعلى فى أوغنـدة . وعند النهـاية الشمالية لمنطقة الانتقال هذه قامت مدينـة جوبا . وهى

المدينة الوحيدة على بحر الجبل فى السودان . وكان تطور القطاع الأعلى ـ فى أوغندة ـ سابقا للقطاعين الأوسط والأدنى ، نتيجة لاقامة سد أوين عند مخرج النيل من بحيرة فكتوريا ، وانشاء محطة توليد كهرباء عليه ، واستخراج النحاس من مناجم كيلمبى فى رونزورى .

٢ ـ المحور الرعوى :

ونستطيع أن نتتبع هذا المحور من غرب السودان الى شرقه ، وهو ليس خطا ، ولكنه نطاق يمتد نحو خمس درجات عرضية بين ١٠ ، ١٥ شمالا ، ويوازى نطاق البحر المتوسط وبينهما الصحراء ، والى جنوبه المستنقعات والغابات . ويتعامد المحور النيلى على هذه القطاعات جميعا. وكان لهذا التعامد أثره فى الربط الحضارى بين شمال الصحراء وجنوبها، بل ان هذه المؤثرات الحضارية استطاعت أن تتوغل على طول المحور النيلى حتى تصل الى المنابع الاستوائية .

١٠ — وتعتمد المراكز الحضارية فى المحور أو النطاق الرعوى على موارد ماء متنوعة :

(أ) هناك أولا المورد النيلى . ولا زالت أرض الجزيرة ـ ومديرية النيل الأزرق بعامة ـ حيث يلتقى المحوران الرعوى والنيلى ـ مركز الثقل الاقتصادى فى السودان وتساهم بالقسط الأكبر من دخله القومى .

فى هذه المديرية وحدها يعيش أكثر من مليونين من السكان تصل نسبتهم الى ٢٠ر٢ ٪ (١) من مجموع سكان السودان . ومع أن نسبة سكان الحضر الى المجموع الكلى ٩ر٦ ٪ (٢) فى مديرية النيل الأزرق ـ وهو رقم منخفض ـ الا أن انخفاضه يرجع الى السياسة التى اتبعت فى التعداد،

---

(١) تعداد السودان ١٩٥٦/٥٥ . التقرير النهائى . المجلد الاول . جدول (1.1)

(٢) Barbour (1961), p. 105.

ويبدو أنها تأثرت تأثرا كبيرا بالوظيفة الادارية للمدن ، واعتبرت مراكز كمايرنو والمناقل قرى . ورغم هـذا فان عدد المراكز الحضرية فيها ثلاثة عشر وهو رقم لا تصـل اليه أية مديرية أخرى عدا كردفان ، ويهبط فيها المجموع الكلى للسكان الى ٨٧٤ر٠٠٠ منهم ٤٪ يسكنون الحضر. ويعطينا هذا فكرة عن ضآلة معدل حجم المدينة فى كردفان اذا قارناها بالنيل الأزرق (ملحق ٢) .

(ب) ويغزر المطر فى السودان كلما اتجهنا جنوبا ، ولهذا كانت الاطراف الشمالية لهذا الاقليم أميل الى الجفاف وتنتهى بنا الى الصحراء . ويمكن أن نرى العلاقة القوية بين توزيع المراكز الحضرية ومعدل المطر اذا لاحظنا أنه ــ بعيدا عن الخط الحديدى والنهر ــ تقع معظم المراكز الحضرية فى وسط النطاق وجنوبه ويبدو هذا بوضـوح فى كردفان ودارفور .

(جـ) وبعض هذه الأمطار يجرى فى النهر والبعض الآخر فى الأودية الفصلية (الاخوار) كالقاش فى السودان الشرقى وتعتمد على مياهه مدن الدلتا القاش : كسلا وأروما ووقر ؛ وخور أبو جبل فى كردفان وعلى مائه تعتمد مدينة الأبيض .

٢ ــ التربة : وتؤثر فى مدى الافادة من الموارد المائية ولهذا يمكن أن نقسم هذا النطاق الى قسمين كبيرين : أرض القوز (الرمال الحمراء) فى الغرب ، والتربة الصلصالية (الطينية) شرق النيل الأبيض (شكل ١٤) (١) ، وان كانت هناك ــ وبخاصة ــ فى

(1) Jewitt, T.N., The soils of the Sudan, p. 8 (duplicated) Shelved at 631. 4 (624), Research Division Library, Wad Medani, 1953.

ويراجع عن التكوينات السطحية فى السودان :

Andrew, G., The Geology of the Sudan, pp. 117-122, in : Tothill, J.D., (editor), Agriculture in the Sudan, O.U.P. 1948.

الشرق قطع من التربة الفيضية لها طبيعتها المتميزة عما حولها مثل تربة دلتا القاش .

ويسهل الوصول الى الماء الجوفى فى تربة القوز . ويصعب هذا فى التربة الصلصالية ، ولهذا أمكن قيام كثير من المراكز الحضرية فى الغرب بعيدة عن النهر معتمدة على التخزين السطحى فى الحفائر والفولات والصهاريج (١) ، أو الجوفى فى الطبقات الحاملة للماء ثم استنباط هذا الماء فى فصل الجفاف عن طريق حفر الآبار ، وكان لتوزيع أشجار التبلدى تأثير على توزيع التجمعات البشرية فى الغرب عندما كان الاعتماد كبيرا على تخزين الماء فيها . وقد قلت أهمية ذلك مع التوسع فى انشاء الحفائر والصهاريج (٢) . وفى هذا كله ما يفسر تناثر المراكز الحضرية غرب النيل ، وان استطعنا أن نميز هناك تجمعين كبيرين أولهما — وهو الأهم — فى الجزء الأوسط والجنوبى من كردفان والثانى فى دارفور وبينهما منطقة تخلخل سكانى وحضرى تتأثر بطبيعة الكثبان الرملية وانعكاس ذلك على صعوبة المواصلات بين كردفان ودارفور . أما فى الشرق فتتركز المراكز الحضرية — غالبا — على المجارى المائية كما فى أرض الجزيرة والنيل الأبيض ، أو تربط بالخط الحديدى كما فى القطاع الممتد من سنار شرقا الى كسلا ثم الى الجبهة البحرية للسودان .

٣ — تأثير المواصلات : أمكن على طول الخط الحديدى بين الخرطوم وكسلا — عن طريق سنار — أن تقوم مراكز استقرار ويرجع

---

(١) يطلق لفظ « فولة » فى السودان الغربى على المنخفضات الطبيعية التى يمكن استغلالها فى التخزين السطحى . وتعتمد الابيض فى توفير ماء الشرب على هذه الطريقة . (Jewitt (1953), Chap. 3, p. 1) أما الحفائر فهى خزانات سطحية مكشوفة توسع السودان فى حفرها وانشائها والاستفادة منها فى نطاقه الاوسط . وتختار أماكن الحفر على أساس من قدرتها على الاحتفاظ بالماء دون أن يضيع قدر كبير منه بالتسرب

(Barbour (1961), pp. 97 & 168).

(٢) Jewritt, (1953), Chap. 3, p. 1.

جزء كبير من أهميتها الى قيامها بوظيفة المدينة على مراحل الخط الحديدى : كالادارة وتجميع التجارة . ومن أمثلة ذلك الشوك والحواتة والسوكى والقضارف . كذلك مكن الخط الحديدى الممتد من كسلا الى بور سودان ــ عن طريق هيا ــ من التوسع فى انتاج القطن فى دلتا القاش وقيام بعض المراكز

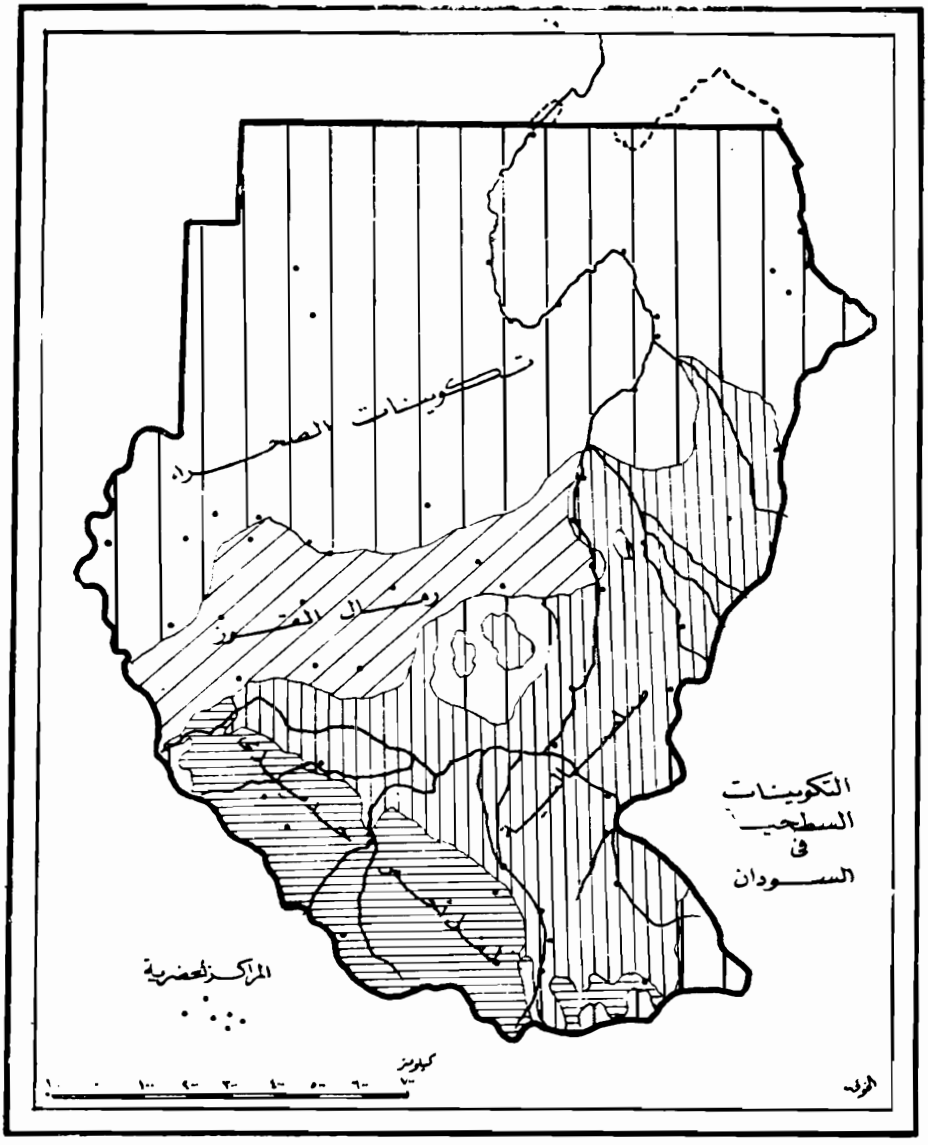

(شكل ١٥)

الحضرية فيه مثل اروما ووقر ، وهذا بالاضافة الى الأهمية التجارية لكسلا وترجع الى انشائها فى القرن التاسع‌عشر . وعلى هذا القطاع من الخط الحديدى تقع سنكات ويرجع اختيارها بين المدن الثمانى والستين الرئيسية الى وظيفتها الادارية فى‌أرض البجة وتعتمد على خدر أديت فى الحصول على الماء وهى تقع فى صميم الاقليم الصحراوى الشمالى وان كان ارتباطها قويا ببقية الوطن البجاوى الممتد الى ما وراء حدود السودان فى ارتريا .

٤ — طرق القوافل الدقيمة : ما سبق قوله عن قاعدة الانقطاع فى المواصلات بتأثير الجنادل يمكن‌تطبيقه هنا بين الصحراءوالنطاق الرعوى . فهنا نشأت موان صحراوية فى النطاق الرعوى جنوب الصحراء . ومن هذه الموانى : الفاشر والأبيض فى السودان الغربى وأم درمان عند مجمع النيلين الأبيض والأزرق وكسلا فى السودان الشرقى . وقامت هذه المدن بدورها فى تجمع تجارة الجنوب والوسط واستقبال تجارة الشمال بعد عبورها الصحراء من نطاق البحر المتوسط وما وراءه من موانى أوربا . وأمكن للمواصلات الحديدية أن تحفظ وتطور النشاط الاقتصادى والتوجيه الجغرافى فى بعض هذه المراكز كالابيض وأم درمان وكسلا بينما تدهورت بعض المراكز الأخرى — كالفاشر — عندما تحولت عنها التجارة .

تأثير التفاعل بين المحورين النيلى والرعوى على انتقال مركز الثقل السياسى فى السودان

فى صدر القرن التاسع عشر كانت قوى السودان السياسيةالرئيسية مركزة فى :

١ — سلطنة الفونج السنارية أو السلطنة الزرقاء فى الشرق .

٢ — سلطنة الفور فى الغرب .

وبهذا كانت القوى الكبرى قائمة وقتئذ فى النطاق الرعوى وكانت سلطنة الفونج مرتكزة على النيل الأزرق وزحفها الرئيسى نحو الغرب والشمال وان امتد نفوذها الى أرض التاكا (القاش) فى الشرق ومن ورائها أثيوبيا بجبالها وعزلتها وبيئتها الجغرافية المتميزة عن سهول السودان . وكانت سنار ــ على النيل الأزرق ــ مركز هذه القوة الشرقية المتجهة الى سهول السودان الأوسط بخاصة (١) . أما سلطنة الفور فكان لها الوضع المقابل فى النطاق الرعوى ، وتستند الى كتلة جبل مرة فى الغرب حيث تتوافر موارد مياه وأماكن ايواء وبيئة متميزة صالحة لاستغلال أكثر من محصول زراعى على المدرجات الجبلية وأمامها سهول غرب السودان مجالا مفتوحا للتوسع (٢) . ولم يكن الجنوب بغاباته ورطوبته بالمجال الحيوى ــ وقتئذ ــ لكل من الدولتين، ولهذا كان السودان الأوسط هو المجال الرئيسى ، مع اتجاه الى الشمال النيلى ، وارتباط بما وراء الصحراء عن طريق التجارة بخاصة ، والصلات الحضارية ــ من اللغة والدين ــ بعامة .

ومع امتداد النفوذ المصرى من الشمال فى أوائل القرن التاسع عشر حدث تغيير فى ميزان القوى ، وبرزت أهمية مجمع النيلين الأبيض والأزرق ، كنقطة قريبة من الشمال يمكن اتخاذها قاعدة انطلاق فى النطاق الرعوى الى الشرق والجنوب والغرب . وقد شاهد هذا الموقع قيام عواصم تاريخية مثل صوبا عاصمة مملكة علوة (٣) وحلفاية الملوك

---

(١) Crawford, O.G.S., The Fung Kingdom of Sennar, pp. 188 & 244-246.

الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٧ القاهرة ١٩٥٠ .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ٢ ص ١١٦ ــ ١٣٦ . وفى هذه الصفحات عرض لحروب سلطنة الفور ويبدو اتجاهها الرئيسى نحو الشرق . القاهرة ١٩٠٣ .

(٣) يشير المقريزى (الخطط جـ ١ ص ٢١٠ ط النيل بالقاهرة ١٣٢٤ هـ) الى مجمع النيلين وعلاقته بالعاصمة فيقول « ويجتمع هذان النهران الابيض والاخضر عند مدينة متملك بلدة علوة » .

عاصمة العبد اللاب (١) . وهذا الموقع المتوسط يفضل كلا من مجمعى النيل بالعطبرة والسوباط . فالأول موغل فى الصحراء شمالا وبعيد نسبيا عن النطاق الرعوى . والثانى موغل فى الجنوب بحيث لا يمكن ــ اتخاذه ــ وقتئذ ــ قاعدة لادارة السودان . ومع هذا فقد شهد كل من المجمعين الشمالى والجنوبى قيام مراكز حضرية ، وان لم تصل الى قوة التأثير السياسية للمجمع الأوسط حيث قامت الخرطوم .

بهذا يتضح التفاعل بين ثلاث عواصم اتخذت شكل مثلث فى حوض النيل الأدنى والأوسط : اثنتان منها فى النطاق الرعوى وهما سنار والفاشر وتمثلان قاعدة المثلث ، والثالثة القاهرة فى رأس المثلث . وقد أدى التفاعل الى « أسر حضرى » ظهرت به عاصمة جديدة فى وسط المثلث ــ هى الخرطوم ــ استطاعت أن تمتص حيوية العاصمتين الجنوبيتين ــ سنار والفاشر ــ وأن تطور وظيفة العاصمة ، وتوسع مجالها الادارى ، متأثرة فى ذلك بعوامل محلية وخارجية .

هذا الدور من الجذب المركزى أدى الى شىء من الذبول الاقتصادى فى الجناحين الشرقى والغربى من النطاق الرعوى ، انعكس على ضمور العواصم القديمة وأهميتها بحيث أصبح عدد سكان سنار أقل من عشرة آلاف ، وتأتى فى المرتبة الواحدة والعشرين بين المدن الثمانى والستين ، وعدد سكان الفاشر أكثر من ٢٥ ألفا وتأتى فى المرتبة التاسعة . ولازالت آثار العمران والحضارة فى دارفور تنبىء عن مجد قديم وتوسع لم تستطيع أن تستعيده حتى الآن .

وزاد من هذا الضمور تدهور تجارة القوافل ، ولم تعد قافلة سنار أو قافلة دارفور مصدر ذلك الثراء العريض الذى ساعد على ازدهار الدولتين .

---

(١) كانت بلدة قرى ــ شرقى خانق سبلوقة ــ شمال مجمع النيلين الابيض والازرق العاصمة الاولى للعبد اللاب ، ثم انتقل مقرهم بعد ذلك الى حلفاية الملوك (محمد عوض محمد : السودان الشمالى ــ سكانه وقبائله ص ٢١٨ . القاهرة ١٩٥١) .

ولم يكن ازدهار الجزيرة والتوسع الزراعى فيها امتدادا لتاريخ سنار ، وانما كان مرتبطا بتطور السودان الحديث فى زراعة القطن .

وبعد أن مر السودان الأوسط فى ذلك الدور من الجذب المركزى، أخذ الآن يحاول أن يمد الجناحين الضامرين بحيوية جديدة . وذلك بالتوسع فى التنمية الاقتصادية فى الجزيرة العليا (١) وفى دارفور (٢) ، يمهد لذلك مد الخط الحديدى من سنار جنوبا ومن الأبيض غربا مع العناية بمشروعات الجنوب لتتكامل مع مشروعات الوسط .

وكان هذا فى عهد استقلال السودان عندما حملت الخرطوم المسئولية كاملة حملا أدى الى تغيير فى حجم السكان بين مدن العاصمة المثلثة ، اذ بدأ الميزان يميل الآن الى الخرطوم ــ كعاصمة ــ لها وظائف جديدة لم تكن لها من قبل . ولاشك فى أن ذلك سيؤثر على الحياة فى أم درمان وسيقفز بالخرطوم الى المرتبة الأولى من حيث الحجم وكثافة السكان (٣) .

٣ ــ الاطراف الشمالية لهضبة الحجر الحديدى فى الجنوب الغربى :

فى السودان اطار جبلى يمكن أن نتتبعه مع خط منسوب ٥٠٠ متر. ويصل عمق هذا القوس الجبلى الى خط عرض ٥°شمالا تقريبا . وفى الجزء الجنوبى الأوسط من تجويفة منطقة السدود . وهى منطقةتخلخل سكانى كالغابة أو الصحراء من بعض الوجوه .

وبهذا تتخذ المراكز الحضرية فى السودان شكل السهم والقوس: السهم هو المحور النيلى ، ووتر القوس المحور الرعوى ، وعود القوس

---

(١) سعد الدين فوزى : محاضرات عن جوانب من الاقتصاد السودانى ص ١١٤ ــ مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ١٩٥٨ .

(٢) Barbour, (1961), pp. 156-157.

(٣) Hamdan, G., Some Aspects of the Urban Geography of the Khartoum Complex, Bull. Soc. Geog. d'Egypte, Vol XXXII p. 92, 1959.

تمثله المدن التى يجمعها خط منسوب ٥٠٠ م جنوب النطاق الرعوى . وتبلغ أقصى عمقها الجنوبى على النيل عند حوبا .

وتمثل مجموعة مدن : أويل وواو وتونج ورمبيك ويرول محورا من موان مستنقعية على أطراف السـدود . وتقع جنوب اقليم التربة الصلصالية . وينطبق نفس الوضع على جوبا وتوريت . وان تحكم فى الأولى موقعها بالنسبة الى مساقط فولا .

وتستطيع السفن الوصول الى واو ــ عاصمة مديرية بحر الغزال ــ فيما بين يوليو وأكتوبر عند ارتفاع مياه بحر الغزال . أما فى الشـهور الأخرى فلابد من ميناء أمامى فى المشرع . وهذه المراكز الحضريةصغيرة الحجم ــ بعامة ــ وان كانت لها وظيفة المدن .

٤ ــ محور الزاندى :

ومدنه أيضا صـغيرة تأثر تطورها بتعبيد الطرق وقيـام مشروع الزاندى (١) و فىمديريتى الاستوائية وبحر الغزال تهبط نسبة سكان المدن الى ١ر٦ ، ١ر٧ ٪ من مجموع السكان فى كل من المديريتين . فالمحور علىهذا الأساس حديثومحدود المدى ، ويرتبط ارتباطا أساسيا بالمشروع وتخطيطه وتطور تنفيذه ، وزراعة القطن فى أرض الزاندى حيث مدن نزارا ويامبيو ومريدى ، وأرض المورو حيث مدينة يای . والمحور ــ بعامة ــ مواز للمحور السابق فى مديرية بحر الغزال .

٥ ــ المحور البحرى :

ويمكن أن نميز فيه على قلة عدد مدنه بين :

(أ) المدن الزراعية :

وتمثلها طوكر . وتشبه ــ من بعض الوجوه ــ كسلا وبقية مدن

---

(١) Ferguson, H., Equatoria Province, pp. 916-918, in : Tothill, Agr. in the Sudan, 1948.

دلتا القاش : أروما ووقر من حيث اعتمادها على ماء الخور فى الزراعة الفيضية وتوفير السقيا . وليس هناك ارتباط مباشر بين دلتا طوكر والجبهة البحرية من الناحية التجارية الا فى قرب ميناء التصدير مماشجع على البدء باستغلال هذه الدلتا لزراعة القطن فى القرن الماضى .

(ب) الموانى :

وتمثلها فى الوقت الحاضر بور سودان ــ المدينة الخامسة فى السودان ــ من حيث الحجم بمجموع يقترب من ٤٨ ألف نسمة بعد ودمدنى .

وبورسودان (١) هى التى ورثت سواكن كمنفذ للجبهة البحرية الشرقية . وشاهدت هذه الجبهة من قبل ــ قيام عيذاب (٢) . والذى يبدو من هذا أن هذا المدخل البحرى لم يتحمل فى تاريخه قيام أكثر من ميناء رئيسية فى وقت واحد . والفرق كبير بين الميناء الرئيسية وما وراءها من موان ثانوية مثل عقيق ومحمد قول .

وهناك ضوابط محلية تتحكم فى قيام الموانى على هذه الجبهة البحرية :

١ ــ توافر مورد مائى عذب يعتمد على الأودية الجبلية المنحدرة الى السهل الساحلى .

---

(١) فى دراسة تطور الموانى السودانية يمكن الرجوع الى :
صلاح الشامى (أ) التوجية البحرى للسودان (رسالة دكتوراة غير منشورة) ١٩٥٧ .
(ب) بور سودان ميناء السودان الحديث . القاهرة ١٩٥٨ .

(٢) كان ازدهار عيذاب راجعا الى تحول طريق الحج الى الجنوب عندما كان طريق الشمال مهددا بالصليبيين ، ثم فقدت أهميتها وتدهورت بعد تراجع الخطر الصليبى . ثم بادت . وصف ابن جبير فى رحلته عيذاب وصفا مفصلا وقت ازدهارها (رحلة ابن جبير ص ٤٢ ــ ٤٦ تحقيق حسين نصار . القاهرة ١٩٥٥) . اما اطلالها الحالية فيمكن فيها الرجوع الى البحث الآتى :
Paul, A ; Aidhab : A Medieval Sea Port, S.N.R. Vol. xxxvi, part 2. pp. 64-70 June, 1955.

٢ ــ وجود فتحة فى الحاجــز المرجانى الموازى للساحــل تمكن من الخروج الى عرض البحر والعودة الى المياه الهادئة بين الحاجز والساحل .

وهذان العاملان متفاعلان : فجريان الأودية وانصبابها فى البحــر يؤدى الى قلة الصفاء والملوحة فى الماء مما يعوق نمو المرجان .

وبهذا نستطيع أن نفسر قيام بور سودان معتمدة على ماء خور أربعات وموج . والى شرقها فتحة تيسر دخول السفن وخروجها .

وتعتمد هذه الجبهة البحرية ــ من الناحيةالاقتصادية ــ علىتصدير انتاج السودان واستقبال وارداته . وهى لا تزال مركزة ــ الى حــد كبير ــ فى السودان الأوسط . ومع اتساع المنطقة التى تخدمها خطوط المواصلات ، الا أن النشاط الاقتصادى لا يزال فى مجموعه محدودا . ومن هنا نستطيع أن نفسر النظام الشجرى المركزى للخطوط الحديدية فى السودان . وكيف أن الفروع ــ على تعددها ــ تتجمع فى مينــاء التصدير الرئيسية . ولا تقوم وادى حلفا فى التجارة الخارجية الا بدور ضئيل بالنسبة الى تجارة بور سودان وينعكس أثر ذلك على حجــم المدينة فعــدد سكان حلفا ١١٫٠٠٠ وترتيبها الثامنة عشرة بين المــدن المختارة .

هذا عن المقارنة الحضرية بين المدخلين الشمالى والبحرى فىالوقت الحاضر ، أما المداخل الغربية والجنوبية فلا زالت حتى الآن لا تتمتع بمواصلات حديدية وهى شريان الحياة والاتصال فى السودان ، وعلى مراحلها يمكن أن تقوم مراكز حضرية جديدة .

ثالثا ــ نتائج

١ ــ هذا النمط من توزيع المراكز الحضرية ، وان كانت فيه ملامح ثابتــة الا أنه متطور مع تطور السودان الاقتصادى وتنفيــذ مشروعات التنمية فيه .

٢ — وتمثل منطقة السدود فجوة حضرية بين وسط السودان وجنوبه. وستؤدى مشروعات التنمية فيها الى اتصال المراكز الحضرية على طول المحور النيلى وروافده الاستوائية فى حوض الجبل والغزال .

٣ — وهناك فجوة أخرى بين كردفان ودارفور . ويبدو هذا فى توزيع مدن السودان الغربى فى نمط كوكبى له مجموعتان أساسيتان : احداهما فى كردفان والثانية فى دارفور . ولا شك فى أن اتصال هذه المراكز والعناية بمد الخطوط الحديدية ــ وهو ما يأخذ به السودان ــ سيؤدى الى اتصال المراكز الحضرية الحالية وقيام مراكز جديدة .

٤ — والنتيجة المترتبة على ذلك هى تدعيم الاتصال بين أجزاء السودان وسيساعد هذا الترابط بين الجنوب والوسط بجناحيه الشرقى والغربى ــ والشمال على تدعيم القومية فى السودان والاسراع فى صهر الأوضاع القبلية وهو أمر عميق الأثر فى تطور السودان .

٥ — فاذا انتقلنا بعد هذا الى دائرة الوطن العربى الكبير ، وجدنا أنه قد آن الأوان لتدعيم المراكز الحضرية على محاور الاتصال الطبيعية بين أجزاء هذا الوطن فى أفريقية . وستساعد على هذا مشروعات التنمية الجديدة . ومن أهم نماذجها مشروع السد العالى ، ويمثل استجابة طبيعية لمقتضيات التطور العربى وتعاونا له آثاره الاقتصادية والاجتماعية بين الجمهورية العربية المتحدة والسودان و « عصر نهضة » فى منطقة التخلخل السكانى بين القطرين الشقيقين ، تنمو فيه المراكز الحضرية فى المنطقة وتترابط.

٦ — فاذا خرجنا من هذا الى الدائرة الأوسع ونظرنا الى الدور الذى ينبغى على السودان أن يقوم به بحكم وضعه الجغرافى ورأيناه عربيا أفريقيا . فالسودان يمثل أقصى امتداد جنوبى للثقافة

العربية فى قلب افريقية . وهو فى حـوض النيل ـ جبهة ريادة للثقافة العربية متجهة الى قلب القارة وهو ـ الى جانب ذلك ـ منطقة التقاء المحور النيلى الممتد الى قلب القارة بالمحور الرعوى الممتد بين شرقها وغربها .

وتدعيم المراكز الواقعة على الأطراف يساعد على تقوية شـبكة الاتصال الكبيرة بين أقطار الوطن العربى والدول الافريقية الحديثة الاستقلال . وهذا بدوره يساعد على التقارب الفكرى . والفكر أساس فى كل تطور .

ملحق « ١ »
المراكز الحضرية فى السودان فى تعداد السكان الأول ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦
حسب عدد السكان فى كل منها مع بيان المجموعة التى يتبعها

رقم	المدينة	عدد السكان	رقم المجموعة
١	أم درمان	١١٣٥٥١	١ ، ٢
٢	الخرطوم	٩٣١٠٣	١ ، ٢
٣	الابيض	٥٢٣٧٢	١ ، ٢
٤	ود مدنى	٤٧٦٧٧	١ ، ٢
٥	بور سودان	٤٧٥٦٢	١ ، ٢
٦	كسلا	٤٠٦١٢	١ ، ٢
٧	الخرطوم بحرى	٣٩٠٨١	١ ، ٢
٨	عطبرة	٣٦٢٩٨	١ ، ٢
٩	الفاشر	٢٦١٦١	١ ، ٢
١٠	كوستى	٢٢٦٨٨	٢
١١	القضارف	١٧٥٣٧	٢
١٢	طوكر	١٦٨٠٢	٢
١٣	النهود	١٦٤٩٨	٢
١٤	الدويم	١٢٣١٩	٢
١٥	نيالا	١٢٢٧٨	٢
١٦	الجنينة	١١٨١٧	٢
١٧	شندى	١١٠٣١	٢
١٨	وادى حلفا	١١٠٠٦	١ ، ٢
١٩	بربر	١٠٩٧٧	٢
٢٠	جوبا	١٠٦٦٠	١ ، ٢
٢١	ملكال	٩٦٨٠	١ ، ٢
٢٢	سنجا	٩٤٣٦	٢
٢٣	رفاعة	٩١٣٧	٢
٢٤	سنار	٨٠٩٣	٢
٢٥	واو	٨٠٠٩	٢
٢٦	أم رواية	٧٨٠٥	٢
٢٧	تندلتى	٧٥٥٥	٢
٢٨	السوكى	٧٣٨٨	٢
٢٩	الرهد	٦٧٠٦	٢
٣٠	شمبات	٦٦١١	٢
٣١	الحصاحيصا	٦٦٠٠	٢
٣٢	كريمة	٥٩٨٩	٢
٣٣	دلنج	٥٥٩٦	٢
٣٤	الدامر	٥٤٥٨	٢

بقية ملحق ا(١)

رقم	المدينة	عدد السكان	رقم المجموعة
٣٥	سنكات	٥١٧٥	٢
٣٦	بارة	٤٨٨٤	٣
٣٧	كدوجلى	٤٧١٦	٣
٣٨	وقر	٤٦٧٦	٣
٣٩	الكاملين	٤٣٤١	٣
٤٠	سواكن	٤٢٢٨	٣
٤١	أبو كرشولة	٤١٥٤	٣
٤٢	الرصيرص	٣٩٢٧	٣
٤٣	الحواتة	٣٩٢١	٣
٤٤	بامبيو	٣٨٩٠	٣
٤٥	مقلد	٣٧٣٥	٣
٤٦	أروما	٣٤٥١	٣
٤٧	دنقلة	٣٣٥٠	٣
٤٨	زالنجى	٣٣١٤	٣
٤٩	المسلمية	٣١٣١	٣
٥٠	قلع النحل	٣٠٨٣	٣
٥١	نزارا	٢٩٧١	٣
٥٢	رمبيك	٢٩٤٤	٣
٥٣	العباسية	٢٨٤٦	٣
٥٤	تالودى	٢٧٣٦	٣
٥٥	اويل	٢٤٣٨	٣
٥٦	توريت	٢٣٥٣	٣
٥٧	أرجو	٢٣٢٩	٣
٥٨	الشوك	٢١٧١	٣
٥٩	تونج	٢٠٧١	٣
٦٠	برى اللاماب	٢٠١٦	٣
٦١	يرول	١٨٩٥	٣
٦٢	سودرى	١٨٠٤	٣
٦٣	رشاد	١٦٨٣	٣
٦٤	كرمك	١٦٤٧	٣
٦٥	مروى	١٦٢٠	٣
٦٦	ماريدى	٨٣٩	٣
٦٧	ياى	٧٣٩	٣
٦٨	كاتيرى	٦٩٩	٣

١ ـ مادة هذا الملحق مستمدة من : تقرير لفائدة مخططى المدن الجزء الاول .
ا) جدول (9.19) ص ٢٠٦
ب) جدول (10.1) ص ٢١٠ ـ ٢١١

ملحق ٢ (١)

توزيع السكان والمراكز الحضرية ونسبة سكان الحضر الى مجموع السكان فى مديريات السودان

المديرية	مجموع عدد السكان	النسبة المئوية لسكان الحضر	عدد الحضرية المراكز
بحر الغزال	٩٩١٠٢٢	١ر٧	٥
النيل الأزرق	٢٠٦٩٦٤٦	٦ر٩	١٣
دارفور	١٣٢٨٧٦٥	٤	٤
الاستوائية	٩٠٣٥٠٣	١ر٦	٧
كسلا	٩٤١٠٣٩	١٥ر٨	١١
الخرطوم	٥٠٤٩٢٣	٥٠	٥
كردفان	١٧٦١٩٦٨	٦ر٥	١٣
الشمالية	٨٧٣٠٥٩	١٠ر٥	٩
أعالى النيل	٨٨٨٦١١	١ر١	١
السودان	١٠٢٦٢٥٣٦	٨	٦٨

١ ـ أ) التقرير النهائى لتعداد ١٩٥٦/٥٥ المجد الاول جدول (1.1)
ب) تقرير لفائدة مخططى المدن الجزء الاول . جدول (10.1)
ج) Barbour (1961), pp. 104-106

٣ وجه السودان

دراسة حضارية مقارنة*

مقدمة :

الاتجاه الى تبين الشخصية الاقليمية هدف صاحب الجغرافيا من أقدم عصور حياتها مع دورات من الازهار والذبول . تطغى عليه أحيانا أهداف أخرى تجنح بالجغرافيا الى اتجاه طبيعى أو بشرى يضطرب معه توازنها .

ونستطيع أن نرجع بهذا الهدف فى العصر الحديث الى ما استنبطه رشتوفن من وجهات نظر همبولت ورتر ، واتضحت معالمه فى كتابات ألفرد هتنر منذ أواخر القرن التاسع عشر . فهو يذكر (١٨٩٨) أن موضوع الجغرافيا المميز من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر هو معرفة بقاع الأرض من حيث تباين كل منها عن الأخرى . وفى عام ١٩٠٥ رعف هتنر الجغرافيا بأنها العلم الكورولوجى للأرض ، أو علم بقاع الأرض وأماكنها ، أو هى علم سطح الأرض من حيث التباين الاقليمى . وقريب من هذا تعريف فيدال ديلا بلاش بأنها « علم الأماكن » . وهذا المنحى يحمله الآن هارتسهورن ، فالجغرافيا عنده « علم التباين الأرضى (١) » .

---

* من ابحاث المؤتمر العالمى « السودان فى افريقية » الذى دعت اليه شعبة بحوث السودان بكلية الاداب بجامعة الخرطوم فيما بين ٥ ، ١١ فبراير ١٩٦٨ ـ كان عرض البحث ومناقشته فى لجنة الجغرافيا صباح ٥ فبراير ١٩٦٨ فى قاعة مجلس جامعة الخرطوم بالسودان ، وقد نشر هذا البحث باللغة الفرنسية فى مجلة الدراسات السودانية ـ كلية الاداب ـ جامعة الخرطوم ونشر بالانجليزية العنوان : Sudan Profile فى مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ص ٥ ـ ٣٣ المجلد الاربعون ١٩٦٧ ـ القاهرة الصادر عام ١٩٧٠ .

(١) Hartshorne R. : Perspective on the nature of Geography, p. 13, Chicago, 1959.

واذا كان هذا التعريف هو المرفأ الذى تأوى اليه الآن سفينة الجغرافيا فى سيرها الطويل ، ومن بعده تطورات ــ شأن أى علم ــ فان الباحث العربى فى قطر عربى لا يسعه الا أن يذكر فى ايجاز تقتضيه طبيعة البحث ــ مدى عناية العرب بالشخصية الاقليمية . فأكثر من كاتب عربى يدرس « المسالك والممالك » أى الأقاليم والعلاقات الاقليمية . والأصطخرى ــ على سبيل المثال ــ لا يتقيد حتى بالحدود السياسية للقطر ويعنى بالوحدة الطبيعية ويجعل الخريطة أساس البحث ويقول « ثم أفردت لكل اقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الاقليم وما يقع فيه من المدن ، وسائر ما يحتاج اليه من علم (١) » . وهو يعنى بالعلاقات المكانية فيقول « وقصدت من كتابى هذا تفصيل بلاد الاسلام اقليما اقليما ، حتى يعرف موقع كل اقليم من مكانه وما يجاوره من سائر الأقاليم (٢) » .

ولم تكن هذه الدراسات قائمة على مجرد جمع المعلومات ، وانما عنى البلدانيون العرب بالرحلة والمشاهدة والخبرة الذاتية . وتبدو هذه الدراسة الميدانيه فى احدى صورها النابضة بالحياة فيما وصف به المقدسى منهجه العلمى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم »... « ونحن فلم يبق اقليم الا وقد دخلناه ، وأقل سبب الا وقد عرفناه وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام : أحدها ما عايناه والثانى ما سمعناه فى الثقات والثالث وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب (٣) » .. ويلى هذا نص أدبى رائع فى بحثه الميدانى والتجارب الذاتية التى مر بها .

البحث عن الشخصية الاقليمية اذن عريق فى الجغرافيا ، عريق فى تراثنا العربى ، حى فى الجغرافيا المعاصرة . والجمع فى هذه الدراسة

---

(١) الاصطخرى : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر الحيثى ص ١٥ القاهرة ١٩٦١ .

(٢) نفس المرجع ص ١٩ .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٤٣ ــ ٤٦ ط بريل ، ليدن ١٩٠٦ ــ اعادت طبعها مكتبة المثنى ببغداد .

بين القوانين الطبيعية والبشرية فى وحدة جغرافية متناسقة ، اتجاه يشق طريقه بقوة فى المدارس الجغرافية المعاصرة على اختلاف ايديولوجياتها ـ ويكفى فى هذا المجـال أن نرجع الى الحوار الخصب الذى يدور بشـأنه فى مجلتى حوليـات الجغـرافيين الأمريكيين والجغـرافيا السوفيتية (١) .

ومثل هذا البحث بطبيعته بحث قمى ـ هو ذروة سنام الجغرافيا ـ وله أبعاد متشعبة .

١ ـ له أولا عمقـه التأريخى الذى يضرب بجذوره ليجمع من التأريخ النماذج الموضحة للشخصية الاقليمية .

٢ ـ وله بعده المكانى الذى يمتد الى ما وراء حدود الاقليم ليتبين تفاعله مع الوحدات القريبـة والبعيدة .. تفاعلا له طابعه على المكان ونبضاته التى تساعدنا على تحديد ملامح الاقليم .

٣ ـ وله تكامله الموضوعى ـ بين مكونات الاقليم نفسـه ـ وهذه المكونات نسيج من عوامل طبيعية وبشرية . وهذا النسيج بدوره متتابع الصور .. وكل صورة سبب ونتيجة .. هى جغرافيا كاملة لها تفاعلها مع ما قبلها وما بعدها ..

من هنا يبدو تركيب البحث . وتبدو أهميته فى نفس الوقت . هى صعوبة بالطبيعة . لا تملك الجغرافيا ولا الجغرافى منها مهربا . فمهمته الأولى أن يجلى الاقليم فى صورته الكاملة .

---

(١) على سبيل المثال انظر :

Soviet Geography, Sept. 62, New York.

وبه عدة مقالات عن الوحدة والثنائية فى الجغرافية ونقد مفهوم الوحدة فى الجغرافيا .. والعدد كله مخصص لهذه المشكلة المنهجية .

وانظر أيضا بحث D.J.M. Hooson فى مجلة A.A.A. Geographers عدد مارس ١٩٥٩ وعنوانه :

Some Recent Developments in the content and Theory of Soviet Geography, pp. 73-82.

ترى هل كان أسلافنا من الجغرافيين العرب يحسون هـذا عندما أطلق بعضهم على كتبه صورة الأرض كالخوارزمى أو صـفة جزيرة العرب كالهمدانى ؟

واذا كانت الجغرافيا عملا علميا تركيبيا .. فهى أيضا عمل فنى فليس هناك من فرق كبير بين تحديد ملامح شخص فى لوحة فنية أو ملامح اقليم فى بحث وخريطة . فأنت فى الصورة تختار زاوية وتوزع أضواء وظلالا . وكذلك أنت فى الاقليم لا تستطيع ـ عمليا ـ أن تصل فيه الى موضوعية خالصة . بل ان الموضوعية الخالصة هنا تكاد أن تكون ضربا من المحال .. أخشى أن أقول !! .

فمهما تكن موضوعية البحث ، فلن يملك الباحث الا أن يستقطب مجموعة من الحقائق المحدودة من آلاف من الحقائق .. منها ما يعرف وكثير منها يجهلها .. ومن منا يعلم أكثر مما يجهل ؟ ثم يحاول بعد هذا أن ينظم هذه الحقائق المختارة من معلوماته بمنهج معين ليقول بعـد هذا أن هذه « شخصية السودان » أو « وجه السودان » .

ولكن لابد من محاولات فى هذا المجال .. وهى بطبيعتها ناقصة . ولن تكون الا كذلك ، متأثرة بوجهة نظر الكاتب ومدى ما يتوفر بين يديه من معلومات وتقييمه لهذه المعلومات ولا زالت مشكلة اختيـار المادة التى تعتبر جغرافية من أعقد ما يقابل هـذا العلم التركيبى فى سيره الطويل ..

ولكن ما فائدته ؟

فائدته الأولى أنه فى الجغرافيا هدف وقمة . هو محاولة لتلخيص شخصية الاقليم لتتجه الأبحاث بعد هـذا الى زوايا يحتاج اليها ابراز هذه الشخصية . وهذه الزوايا ـ بدورها ـ تنتظمها ـ من بعد ـ أبحاث كلية تعيد تجميع الحقائق المتناثرة فى وحدة علمية فنية . وهكذا يحدث اخصاب بين البحوث التفصيلية والشاملة .. بين البعد التاريخى

والواقع .. بين المحلية والعالمية .. وفى هذا عون على السير الى الجغرافيا التطبيقية والتخطيط الجغرافى .

فلتكن هذه المحاولة خطوة على الطريق . فيها كل ما فى الخطوات الأولى من تصور وأمل .

١ ـ وسطية السودان

تدرج :

دولة تأتى فى الحجم أول دول افريقية بمساحة قدرها ٢ ١/٢ مليون كيلو مترا مربعا . وتليها الجزائر والكونغو كنشاسا .. وهذه الثلاث فى افريقية هى التى تزيد مساحة كل منها عن مليونين من الكيلو مترات المربعة ، (شكل ١٦) .

الا أن الجزائر اذا كانت تجمع بين اقليمى البحر المتوسط والصحراء واذا كان الطابع الاستوائى هو الغالب فى الكونغو فان السودان يمتاز بين هذه الوحدات الضخمة بتنوع لا نظير له فيها جميعا :

فهو يبدأ شمالا عند خط عرض ٢٢ شمالا من الصحراء الخالصة حيث تتركز الحياة تركزا شديدا على جانبى النيل ، ثم يتدرج الى نطاق هامشى من المطر الصيفى تتكاثف فيه الحياة على النهر ، وتتناثر فى غلالة رقيقة على جانبيه ، ثم تنضج الثنائية من الاعتماد على المطر والنهر فى السودان الأوسط حيث نطاق يعج بالحياة يمتد من أقصى الغرب حيث شواطىء المحيط الأطلسى الى اثيوبيا شرقا .. ويتعمق النيل بمنابعه جنوبا حيث منطقة السدود ثم يصعد الى الهضبة الاستوائية ومرتفعات تقسيم الماء بين النيل والكونغو ..

ففى الجنوب ـ فى أوغنده ـ منطقة من المطر الدائم ، وفى الشمال صحراء خالصة ، وبين المطر الدائم والجفاف الدائم تتدرج الحياة وتتشابك .

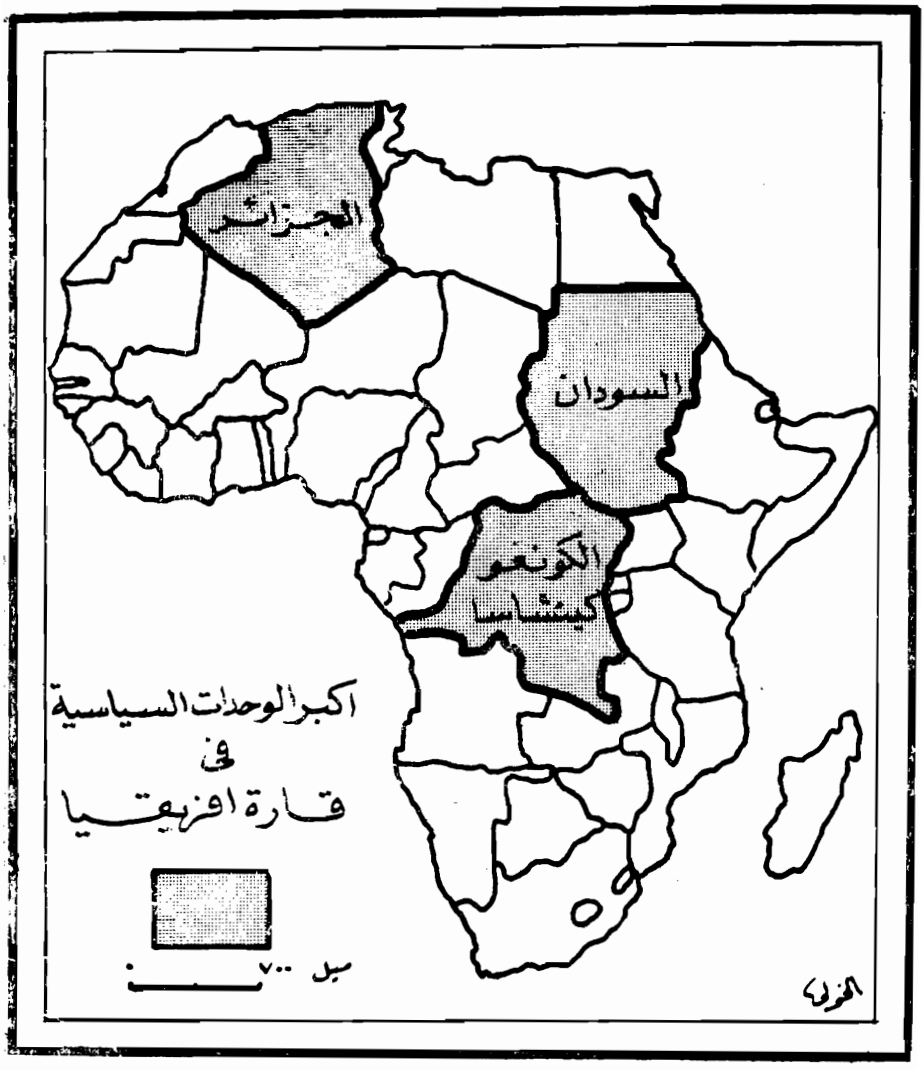

شكل (١٦)

حجم متجمع :

هذا الحجم الضخم يمتـــاز بأنه حجم « متجمع » Compact أقرب ما يكون بمستطيل قليل الزوائد التى تبرز منه ، والاسافين التى تغرس فيه .

واذا كان الشكل العام للوحدة السياسية فى شرق القارة يتأثر فى

بعض الوحدات بتوزيع وشكل التضاريس فيعطينا نمطا شريحيا فى الصومال وموزمبيق ، أو شريحيا متعامدا على اتجاه الساحل ـ قزميا فى الغالب ـ فى غرب القارة ، أو متجمعا ولكنه صندوق رمال كالوحدات الداخلية فى غرب القارة ـ تشاد والنيجر ـ ، فان السودان ظل بمنأى عن شريحية الشرق وقزمية الغرب وفراغ الدول الداخلية فى الغرب . وله ـ الى جانب ذلك جبهة بحرية يتصل بها اتصالا مباشرا بالعالم الخارجى ..

وسطية مع النيل :

والنظرة الأولى الى الخريطة تبين أن النيل أبرز ملامح الحياة الطبيعية فى هذا الحجم المتجمع .. انه كجبال الأطلس فى الجزائر وكنهر الكونغو فى الكونغو .. كل أولئك له الصدارة شكلا فى قطره .. فهل هو كذلك موضوعا ؟

الأطلس هو العمود الفقرى فى الجزائر . ولكنه سلسلة فقرية لا تقع فى منتصف الجسم . والكونغو ليس بالنهر الذى تقوم عليه الحياة هناك ، رغم أن الدولة تحمل اسمه . أو هو يحمل اسم الشعب . هو هناك ظاهرة مكملة للحياة وليس أساسا لها . طريق مواصلات ومجال صيد ومولد كهرباء . أما النيل فهو فى أجزاء من السودان كل الحياة دون أن تعتمد عليه أجزاء أخرى .

النيل فى السودان يعطينا بهذا مرحلة وسطى من التفاعل مع النهر فى أرض النيل :

١ ـ ففى مصر : النيل هو الحياة . والتشابه واضح ـ من هذه الزاوية ـ بين وادى النيل الأدنى والأجزاء الشمالية من السودان بحيث يستطيع الانسان كما يقول المؤرخ الأمريكى ولسون « أن يقف واضعا احدى قدميه فى الأرض الخصبة المزروعة بينما يضع قدمه الأخرى فوق رمال الصحراء الجدباء . فاذا ما ألقى بناظريه نحو وادى النيل أحس بضجيج الحياة وزحامها ، فاذا ما التفت نحو التلال لم تقع

عينه الا على فضاء واسع مقفر لا حياة فيه » ، ثم يقول عن مصر والقول هنا يمكن تطبيقه على شمال السودان « ان ذلك النهر العظيم هو الذى يمد مصر بأرضها ومائها الذى تحيا به ، ولو انقطع جريانه لجفت هذه التربة وأصبحت ترابا تذروه الرياح ، وتصبح مصر كلها واديا متسعا (جافا) لا يختلف عن وديان الصحراء الكبرى فى شمال افريقية (١) » .

٢ ــ واذا كنا نعتبر النيل فى شمال السودان محور الحياة ، فان هذا المحور يتشعب فى منابعه وفى السودان شكلا ، ويتغير مضمونه الوظيفى أيضا . فابتداء من خط عرض ١٧ شمالا تقريبا تبدأ روافد النيل فى الظهور : العطبرة ثم الأزرق بروافده الضخمة فى السودان واثيوبيا ، وفى النيل الأبيض بامتداده الجنوبى الذى تتجمع فيه المؤثرات الاثيوبية التى يحملها السوباط والاستوائية التى يحملها بحر الجبل ، والموسمية التى تحملها مجموعة بحر الغزال . هنا التزام كبير للنهر فى أرض الجزيرة والنيل الأبيض ، وبعد عنه فى السودان الغربى . اعتماد كبير على النهر فى الوسط والشرق وعلى سواه فى الغرب . ولكن ، لنسر مع النيل جنوبا الى أرض السدود ، وفى الاسم دلالة : ان النهر أصبح عقبة بعد أن كان شريان الحياة .. والحياة تغص بالماء بعد أن كانت فى ظمأ اليه . النهر هنا عامل طرد سكانى بعد أن كان عامل جذب رئيسى . اذا فاض نأى عنه سكانه ، بينما يقبلون عليه فى الشمال . ثم يتوحد المجرى فى بحر الجبل الأوسط مع شدة الانحدار ومنطقة الانتقال من السدود الى هضبة البحيرات . وتعود الى النيل العاصمة جوبا .. عاصمة جنوب السدود تقابل الملكال شمالا وواو غربا .

٣ ــ فاذا ما اتجهنا من السودان شرقا وجدنا أودية الروافد النيلية عميقة واسعة . عمق يبلغ فى النيل الأزرق أحيانا نحو ألف وخمسمائة متر واتساع يتراوح فى المنابع العليا بين الخمسة والعشر كيلو مترات . والحياة هنا ــ كما فى أوغندة من بعض الوجوه ــ فى غنى بأمطارها عن

---

(١) ولسن ، جون : الحضارة المصرية ص ٣٦ القاهرة ١٩٥١ ترجمة احمد فخرى .

نهرها وان زاد الانتفاع به مع التطور الحديث هناك بحيث وصلت شبكة الكهرباء الى كينيا .

والأنهار فى اثيوبيا كانت ولا تزال ــ الى حد كبير ــ فواصل طبيعية وعقبات فى سبيل الاتصال السهل . والنيل ــ كنهر ــ فى اثيوبيا عامل طرد سكانى ومدنى بينما هو فى مصر عامل جذب رئيسى وفى السودان ــ وسطية ــ بين الجذب والطرد تتدرج به الحياة والأحياء . أعانت على ذلك انحدارات الأرض من الجنوب والشرق والغرب فتكون حوض السودان .. ومن هنا تبدو ثلاثية أخرى :

(أ) فاذا كانت فى أوغندة واثيوبيا مناطق الروافد .
(ب) وكانت مصر أرض المجرى الواحد .
(جـ) فان السودان يجمع بين ظاهرتى التعدد والوحدة .. وسطية أخرى فى الجريان مع وسطية الاستفادة والاعتماد . ومن هنا يبدو جانب من الشخصية المائية أو الهيدرولوجية للسودان من حيث علاقاتها بدول النيل ، ارتباطا يحمل طابعى الاعتماد على النهر والمطر .

٢ ــ النيل والدولة

وقد ترك هذا أثره على الصورة السياسية للسودان فتنوعت فيه البيئات وتنوع اعتمادها على النهر ومدى اهتمامها بقضاياه .

١ ــ واذا كان هذا الارتباط الكامل فى مصر بين النهر والحياة قد ترك طابعه القوى على الحياة المصرية من أقدم عصور حياتها ــ من تحويل مجرى النيل فى عهد مينا ــ وما قبل ذلك ــ الى بناء السد العالى ــ فان ابراز هذا الطابع يفتح مجالا واسعا للمقارنة بين أنماط الحياة فى أرض النيل .

ففى خلال التأريخ المصرى الطويل لم يتم فيها أى كيان سياسى بعيد عن النهر . وقد تكون هذه الظاهرة أوضح من أن تذكر ، ولكنها فى مجال المقارنة عميقة الأثر . وذلك لأن الحياة فى مصر ترتبط أولا

بوجود النهر ، وثانيا بنظام فيضانه ، بحيث لا تستطيع الجهود الفردية غير المنظمة أن تقابل تحدياته . من أجل ذلك عرفت مصر من قديم وحدة الشعب والدولة . واجتاحت الحكومة فى تنفيذ مشروعاتها الى أن تجمع فى يدها سلطانا قويا وجهازا اداريا ينتشر مع ترع النهر بضبط الأمن ويرقب المحصـــول ويجبى الضرائب . ومن قـــديم ارتبط رجل الأمن بمهندس الرى بجابى الضرائب .. ثلاثية قديمة فى مصر حملت أكثر من اسم ولها انعكاساتها فى تاريخ مصر الطويل (١) .

وقد ترتفع فاعلية هذه الثلاثية ايجابيا الى درجات عالية من الكفاءة والرقى الاجتماعى . ولنا فى هذا أن ننظر الى وصف مصر كما رآها ابن جبير الأندلسى عندما زارها فى عهد صـــلاح الدين الأيوبى ــ وكانت رحلته من الاسكندرية الى القاهرة الى الصعيد الى عيذاب الى البحر الأحمر فى طريقه الى الحج .. يقول « وأما أهل بلده ففى نهـــاية من الترفيه واتساع الأحوال ، لا يلزمهم وظيف البتة .. (٢) » وقد تهبط الى درك خفيض من البؤس والمجاعة . ولعل من أوفى النماذج فى هـــذا ما جاء فى كتاب « اغاثة الأمة بكشف الغمة » لتقى الدين المقريزى . وهو الكتاب الذى يدرس فيه تاريخ المجاعات فى مصر ، ويردها الى أسباب بشرية علمية ويلقى العبء الأكبر فى مسئوليتها على نظام الحكم لا على ظاهرات البيئة . والمقريزى بهذا رائد من رواد « الامكانية » التى تنفى صرامة الحتم الجغرافى (٣) .

٢ ــ فاذا ما انتقلنا الى اثيوبيا وجدنا اعتمادا رئيسيا على المطر . والمطر بطبيعته ــ لا يحتاج فى انزاله الى جهاز حكم مركزى أو سلطة

---

(١) جمال حمدان : شخصية مصر ص ٥١ ــ ٥٤ القاهرة ١٩٦٧ .

(٢) ابن جبير الاندلسى : رحلة ابن جبير ص ١٠ القاهرة ١٩٥٥ ــ تحقيق حسين نصار والوظيف ــ فى النص الوارد بالمتن ــ ما يقدر للانسان فى اليوم أو الشهر أو السنة من طعام أو رزق أو نحوه (انظر حاشية المحقق فى نفس الصحيفة) .

(٣) تقى الدين أحمد بن على المقريزى : اغاثة الامة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات فى مصر ــ انظر ص ٢٨ ــ ٣١ عن وصف مجاعة ٥٩٦ هـ ــ ١٢٠٠ م ودراسة المقريزى لاسباب المجاعات ــ أو الغلوات كما يسميها فى ص ٤١ ــ ٦٢ تحقيق بدر ١ لدين السباعى حمص ١٩٥٦ .

حكومية ـ وحديثنا فى هذا المجال لا يعرض للمطر الصناعى . فاذا أضفنا الطبيعة الجبلية فى اثيوبيا ، وفعل المجارى المائية فى تقطيع سطح الحبشة الى مناطق ، تعتبر الأخاديد النهرية فيها خطوط دفاع ، وجدنا أن جمع اثيوبيا تحت سلطة مركزية تخضع لها جميع الرؤوس الحاكمة ، أستغرق قرونا ومحاولات ، حتى أصبح حقيقة واقعة ، تعتمد على شبكة جديدة من المواصلات البرية ثم الجوية .

٣ ـ والنظام الأوغندى الاستوائى قريب فى أسبابه ونتائجه ومختلف فى بعض تفاصيله ـ عن النظام الاثيوبى : ففى منابع النيل الاستوائية قامت ممالك لا تزال بعض آثارها باقية فى نظام الحكم : الباغندة والبانيانكولى والبانيورو الخ ..

٤ ـ أما السودان ففيه أكثر من نواة حضارية : ولنرجع الى ما قبل تحديد الحدود الحالية فى أواخر القرن التاسع عشر .. بل الى ما قبل القرن التاسع عشر عندما كان التفاعل فى الأرض التى عليها السودان ، يرجع أكثر ما يرجع الى مقومات محلية لها ارتباطاتها الحضارية الخارجية .

وسنرى ثلاث نويات حضارية رئيسية :
(أ) نواة قامت عليها سلطنة الفونج السنارية .
(ب) نواة قامت عليها سلطنة درافور .
(جـ) نواة شمالية من مجمع النيلين شمالا فى النيل النوبى .

وهناك فروق فى الموقع وأوجه تشابه وتباين . ولو رسمنا مثلثا رءوس زواياه فى مناطق سنار ودارفور والنيل النوبى لكان ملتقى النيلين ـ الأبيض والأزرق ـ بصفة عامة فى وسط هذا المثلث .

طبيعة الحضارة فى القطاع الشمالى كثيرة الشبه فى ظروفها الطبيعية بوادى النيل الأدنى وان قطعتها الجنادل الى أوطان صغيرة يجمع بينها النيل كحبات فى عقد . وهى هيئة Landscape طبيعى يساعد على

قيام أكثر من دولة وأكثر من عاصمة ومركز حضارى . هل نذكر كوش ونباتا والمقرة وعلوة ؟ وخطا من المراكز الأثرية ينتظم المنطقة من الشلال الأولى الى مجمع النيلين تعاصرا وتتابعا ؟ (١) .

ونواة أخرى ازدهرت فى سلطنة الفونج حيث الحيـاة تفاعل بين المطر والمياه الجارية . أما سـنار فيرجع اختيارها كقاعدة للحكم الى أسباب : فى مقدمتها موقعها الاقليمى الاستراتيجى فى قلب القطـاع الشرقى من السـودان . ويسيطر موقع المدينـة على الطـرق النيلية والقوافل وفيه يلتقى تجـار يحملون سلع مصر والشرق الأقصى عبر سواكن ومصوع وأثيوبيا (٢) . والامتداد الرئيسى للفونج كان الى الشمال الغربى على محور النيل ، وان حدث توسع الى الشرق والغرب والامتداد ، فى غير الشمال ، لم يبعد بها عن المجال النيلى .

هذا بينما كانت كتلة جبل مرة ، نواة سلطنة الفور ، حيث يتوفر الماء والحماية . ويقول محمد بن عمر التونسى عن هذا الجبل فى رحلته ، « هو جبل يشق اقليم الفور من أوله الى آخره مع الاستقامة ، وله عدة طرق تصعد الناس منها اليه ، ولكل قطعة منه اسم خاص به غير الاسم العام . والفور يسكنون أعلاه ، ولا يألفون الوهاد . بل يرون أن ذلك أصون لهم ولأموالهم (٣) » .. « وفى هذا الجبل أمم وعالم لا يحصى كثرة ، وفيهم القبيلة المعـروفة بالكنجارة التى ينسب اليها سـلطان دارفور . وفى هذا الجبل كهوف عديدة ، تحبس فيها أولاد الملوك ، وأخرى لحبس الوزراء (٤) » والذى يعنينـا ارتباط البيت الحاكم

---

(١) انظر هذا الموضوع :

Arkell, A.J. : A History of the Sudan, from the Earliest Times to 1821, London, 1955.

والخرائط المتتابعة تاريخيا من ٣ الى ١٠ بادئة من قبل القرن السادس عشر قبل الميلاد الى الثامن عشر الميلادى .

(٢) الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٣١ ـ ٣٢ القاهرة ١٩٥٥ .

(٣) محمد بن عمر التونسى : تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص ٦١ تحقيق خليل عساكر ومصطفى سعد القاهرة ١٩٦٥ .

(٤) نفس المرجع ص ١٥٣ .

بالجبل كمنطلق ومأوى . وان كان الحديث عن أصل البيت الحاكم ومصدره لا زال محل دراسة .. شأنه شأن البيت الذى أسس سلطنة الفونج (١) .

ولقد كان لكل من الدولتين صلة قوية بمصر . وكانت تصل الى المحروسة ــ القاهرة ــ كل عام قوافل دارفور وسنار ويعطينا هنا التونسى أيضا صورة نابضة بالحياة عن عمق هذه الروابط وهو يتحدث عن أسرته : المنشأ فى تونس ، والأب فى دارفور ، وبعض أهله فى سنار ، واللقاء فى القاهرة ، بعد العودة من الحجاز وأداء فريضة الحج (٢) .

وهذه الوجهة الشمالية والارتباط بوادى النيل الأدنى فى مصر كانت متكاملة مع روابط أفقية أخرى بين قطاعات النطاق الرعوى جنوب الصحراء .. وروابط تمتد ما بين المحيط الأطلسى وتعبر المرتفعات الشرقية ــ فى اثيوبيا وما وراءها جنوبا ــ الى عالم المحيط الهندى المفتوح على الشرق الأقصى . وكما كانت القوافل تسلك هذه الطرق الأفقية ، فقد كانت تخترق الصحراء فى أكثر من مكان ، رابطة المنطقة كلها فى نسيج حضارى كبير ، اذا تباينت بيئاته محليا ، فقد كانت لها خصائصها العامة من الحضارة العربية الاسلامية (٣) (شكل ١٧) .

---

(١) انظر دراسة لهذا الموضوع فى

Crawford, G.G.S.: The Fung Kingdom of Sennar, pp. 134-142, Gloucester, 1951.

والشاطر بصيلى عبد الجليل (١٩٥٥) ص ٢٠ ــ ٣٥ .

(٢) التونسى : المرجع السابق ص ٣٢ .

(٣) عن

Fage, J.D.L.: An Atlas of African History, map 13, p. 17, London, 1958.

وانظر أيضا فى الروابط الافقية على امتداد النطاق السودانى ما بين المحيط الاطلسى والمحيط الهندى

Davidson, B.: Old Africa Rediscovered, Chap. III, pp. 61-116, dealing with "Kingdoms of the Old Sudan" map 2, p. 63, London, 1961.

وللكتاب ترجمة عربية مع اضافات قام بها جمال محمد احمد بعنوان : افريقيا تحت أضواء جديدة بيروت ١٩٦١ .

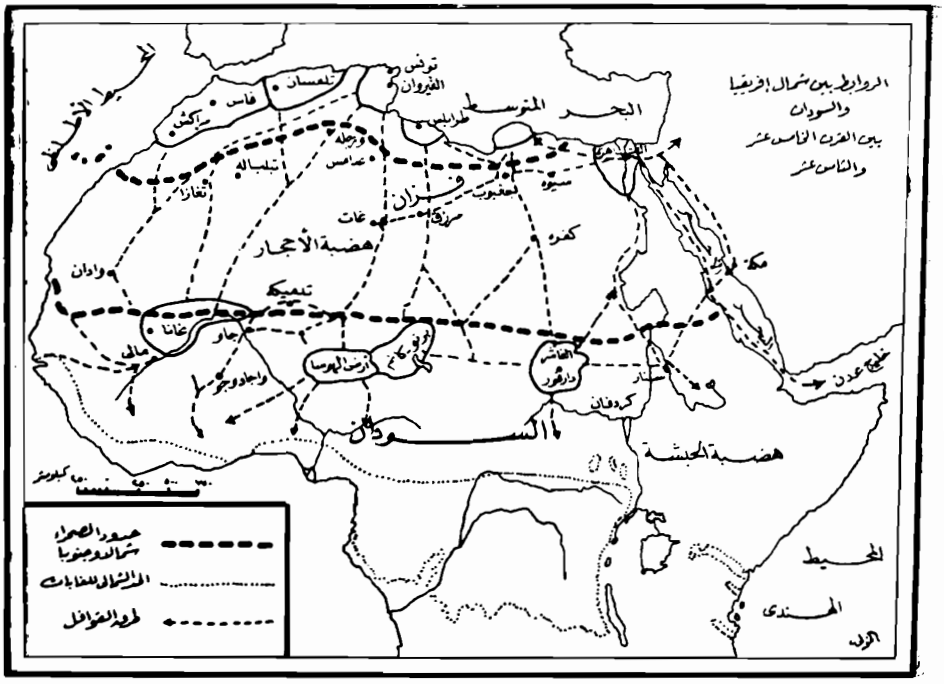

شكل (١٧)

من أجل ذلك كان لتعدد النويات الحضارية فى السودان وزنه الحضارى حين استطاع مجمع النيلين ـ الأبيض والأزرق ـ أن يستقطب النويات الثلاث الرئيسية وما وراءها جنوبا فى وحدة سياسية واحدة :

استطاع أن يستقطب سلطنة الفونج السنارية وسلطنة دارفور والمشيخات الشمالية ، ليتدعم مركز المثلث على حساب رءوس زواياه .. ثم يعود بعد هذا ليدفع اليها دماء حضارية جديدة . وهذا الدفع يعتمد ـ أكثر ما يعتمد ـ على مشروعات نيلية يمثلها ، فى أوضح صورها ، التوسع فى أرض الجزيرة والصعود بالمشروعات جنوبا على النيل الأزرق . فمن حيث التأثير النيلى حدث الارتباط بين التوسعين الزراعيين فى مصر والسودان .. بين السد العالى والرصيرص وخشم القربة . واذا كانت الجزيرة « دلتا » شمالية فى السودان تتسع فيها الأرض الزراعية

واليها تتجه أكبر المشروعات ، فان هناك فى السودان « دلتا جنوبية » أخرى فى منطقة السدود ــ زراعية رعوية ــ يمكن بالتطور العلمى أن تصبح الركن الحضارى الرابع ومنه تنطلق اشعاعات حضارية الى كل ما حوله من أرض السودان (١) . وبهـذا يبدو ارتبـاط السودان المتزايد بمشروعات النيل وتأثير ذلك على اقتصاديات السودان ووزنه السياسى . ومع هذا فلا يزال هناك جزء كبير فى السودان يعتمد على المطر ، وعلى وسائل التخزين المحلية من الحفائر والفولات والصهاريج، وستظل هذه الثنائية من الاعتماد على المشروعات والمطر ولها انعكاسها على مدى الترابط بين أجزاء السودان والعلاقة بين المركزية ونظم الحكم المحلية .

وهذا التنوع يمكن أن يكون مصدر اثراء وصمام أمان ، ولا زالت معادلة « القطن ــ الصمغ » لها وزنها فى الاقتصاد السودانى : تزداد العناية بجمع الصمغ مع قلة محصول القطن . فالنيـل وضبطه ــ مع أهميته ــ ليس المحرك الوحيد للحياة فى السودان . ومع التنمية ستظل الثنائية « النيل ــ المطر » أثرها فى توازن الحياة السودانية . ثنائية هى بدورها وسطية جغرافية بين النظامين الأوغندى والمصرى .

٣ ــ المحور والدولة

المحوران الرئيسيان لتوزيع السكان فى السـودان هما : المحور النيلى والمحور الرعوى أو النطاق السودانى . وحيث يلتقى المحوران نرى مركز الثقل الاقتصادى والسكانى فى السودان فى أرض الجزيرة .

ومناطق لتخلخل السكانى ــ اذا استعرنا تعبير ددلى ستامب ــ هى صحراء الرمال فى الشمال ، وصحراء الغابة فى الجنوب ، ويمكن أن نضيف اليها صحراء المستنقعات فى اقليم السدود .

وليس فى السودان تركيز سكانى على الأطراف . وانما يمتاز بكتلة

---

(١) لعل اوفى ما كتب فى هذا الموضوع :
The equatorial Nile Project and its effect in the Anglo-Egyptian Sudan, being the Report of the Jonglei Investigation Team.

متماسكة من المعمور فى النطاق الأوسط وبخاصة فى التقاء المحورين النيلى والسودانى ومن حولها غلالة من التخلخل السكانى تبرز فيها خطوط من التكاثف الذى تتجمع حوله الحياة . وأهم هذه الخطوط المحور النيلى فى أقصى الشمال والجنوب ومناطق الاستقرار فى أطراف السودان الشرقية والغربية وتصل بينها وبين نواة المعمور شبكة مواصلات آخذة فى القوة والامتداد (شكل ١٨) .

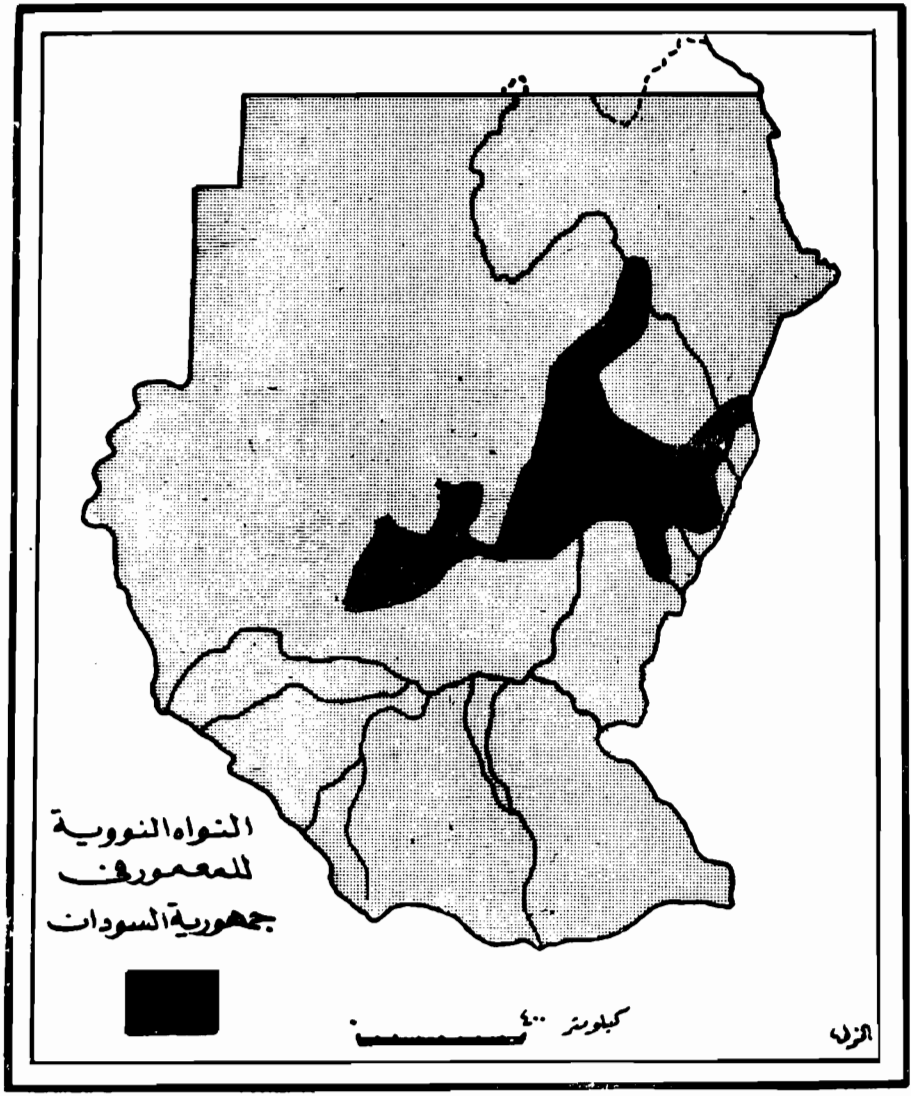

شكل (١٨)

هذا هو النمط العام الذى يتوزع به سكان السودان الذين ارتفع عددهم الى نحو أربعة عشر مليونا (١٩٦٨) .

ومركز السودان السكانى فى افريقية يأتى بعد نيجيريا ومصر واثيوبيا وجنوب افريقية والكونغو كنشاسا . واذا كان السادس فى الترتيب العام لافريقية فهو الرابع فى افريقية المدارية .. والى شرقه اثيوبيا والى غربه الكونغو ونيجيريا . فالسودان بموقعها تكاد أن تتوسط الوحدات المدارية الكبرى وتشترك فى حدودها مع اثنتين منها . فاذا أضفنا الى الامتداد الطبيعى الوزن السكانى ، استطعنا أن ندرك أهمية السودان « بالموقع » « والعلاقات المكانية » كما هو بالسكان والعمران .

موقع المعمور :

ولهذه النواة المعمورة فى قلب السودان مزاياها ولها أيضا مشكلاتها ..

١ ــ فمناطق التركز السكانى بطبيعتها تساعد على قيام وحدات سياسية مستقرة ــ ولنا فى هذا أن نتذكر النويات الحضارية التى استطاع مجمع النيلين أن يستقطبها ــ بالاضافة الى نويات التنمية المنتظرة ــ بينما مناطق التناثر السكانى لا تساعد بطبيعتها على قيام وحدات سياسية كبيرة .

٢ ــ واذا نظرنا الى العلاقات الرأسية والنيلية من حيث توزيع المعمور وجدنا ثلاث نويات رئيسية : أولاهما ، فى وادى النيل الأدنى ــ مصر ــ والثانية ، فى السودان الأوسط ، والثالثة فى منابع النيل الاستوائية .. وبين الكتل الثلاث نطاقات من التخلخل السكانى فى النيل وبحر الجبل . وهذه المناطق اذا ما كانت تعبرها الحدود ، فان قلة سكانها قد تدعو الى قيام مشكلات بشأنها : اذ قد تعتبرها الكتل المعمورة مجالات امتداد . وقد تدعو ــ أحيانا ــ الى اضعاف الروابط الحضارية اذا ما طالت طرق الاتصال . بل قد تدعو الى قيام حدود

ادارية وسياسية . والعكس صحيح : فان الحدود اذا ما كانت تمر فى أجزاء من المعمور ، فانها قد تفصل بين بطون وعشائر من قبيلة أو شعب واحد ، وقد يكون هذا مثارا لصور من النزاع .

٣ ــ فاذا ما انتقلنا من التأصيل النظرى الى التطبيق العملى وجدنا أن الأجزاء الشمالية من المحور النيلى فى السودان والجنوبية فى مصر تعتبر ــ جغــرافيا ــ منــاطق طرد سكانية ، لا تســتطيع بضوابطها الجغرافية الحالية ــ أن تتحمل الا عددا محدودا من السكان ، وليس أمام الباقين الا الهجرة . والهجــرة هنا تتجه أكثر ما تتجه الى الكتل المعمورة على المحور النيلى وفى النطاق السودانى الأوسط . من هنا لم يكن فى نطاق التخلخل السكانى بين مصر والسودان انطوائية تنأى به عن أحدهما أو كليهما . بل كان من عوامل الربط الحضارى بين الشمال والجنوب . والأسرة الواحدة قد يكون موطنها الأول فى ديار النوبة ، وأبنــاؤها منتشرون على النيل شــمالا وجنوبا . وفى النطاق السودانى شرقا وغربا . ونستطيع أن نرى هجرات على مستوى القبيلة ما بين قطاع التخلخل الشمالى والسودان الأوسط .. ساعد على هذا وحدة الدين واللغة العربية كلغة أم ، لها مكانتها فوق اللهجات المحلية.

٤ ــ وتختلف الصورة فى بعض تفاصيلها اذا ما اتجهنا جنــوبا . ولنأخذ مثالا من اقليم الزاندى (١) . فمن طبيعــة اقليم الســدود فى السودان وقلب حوض الكونغو أن يدفع بسكانه من المنخفضات الى المرتفعات حيث الفاصل المائى بين النيل والكونغو . وهو منطقة جذب سكانى تتطلع اليها أنظار سكان القيعان فى اقليمى السدود والكونغو من أجل ذلك اجتذب الزاندى ليستوطنوه من قديم . حدث هذا من قبل أن يأتى مخططو الحدود ليجدوا هذا الفاصل المائى أنسب مكان ليضعوا حدودهم بين السودان والكونغو كنشاسا وجمهورية افريقية

---

(١) محمد عوض محمد : العرب والسلالات الافريقية شكل ٤ مقابل ص ١٩٢ القاهرة ١٩٦٥ وفى الدراسة الوصفية لوطن الزاندى انظر ص ١٨٨ ــ ١٩٠ .

الوسطى ، شاطرة أوطان الزاندى الى ثلاثة قطاعات . فاذا أضفنا الى ذلك أن هذا الاقليم ــ بموقعه الجغرافى ــ داخلى وله ــ مع ذلك ــ روابطه الحضارية بأرض النيل وشرق وغرب أفريقية (١) ، استطعنا أن ندرك جانبا من التباين بين مشكلات الحدود من حيث علاقتها بالمعمور اذا ما قارنا بين الشمال والجنوب الغربى .

٥ ــ وهذه الصورة يمكن أن نجدها ، بتكثيف أقل ، فى القبائل الموزعة عبر الحدود فى الجنوب والجنوب الشرقى كالأنواك فى حوض نهر اكوبو ــ بين السودان واثيوبيا ــ والاتشولى بين السودان وأوغنده .

٦ ــ أما فيما بين السودان واثيوبيا فيبدو تأثير مغاير لتوزيع المعمور : ذلك لأن كتلة المعمور الاثيوبى متأثرة أساسا بتوزيع الرياح وسقوط الأمطار والحياة النباتية هناك .. والرياح السطحية الممطرة ــ الى ارتفاع ٣٠٠٠ مترا ــ تهب من الجنوب الغربى . أما فى الكيلو متر الرابع فتهب ــ فى فترات المطر الغزير من الشرق الى الغرب . والذى يعنينا ــ فى هذا المجال ــ أن كتلة المعمور الاثيوبى مواجهة للسودان غير بعيدة عن كتلته .. والنطاق بينهما غنى بحياته النباتية .. وحركات القبائل والعشائر فيه دائمة .. هذا فضلا عن تباين طبيعة المعمور الاثيوبى الجبلية ، عن المعمور السودانى السهلية ، وما ترتب على ذلك من تباين حضارى سنشير اليه بعد قليل ، فاذا أضفنا الى ذلك أن كلا من الدولتين من دول الأركان فى افريقية ، استطعنا أن نتصور حساسية حركة القبائل عبر الحدود فى منطقة غنية بنباتاتها فوقها الجبل ودونها السهل .. وهذه الصورة من التفاعل توجد بدرجة محدودة فى الحدود الغربية .

---

(١) Seligman, C.G. : Egypt and Negro Africa, London, 1934.

فى ص ١٢ يدرس القيثارة عند الزاندى واوجه الشبه بينها وبين ما فى حوض الكونغوومصر القديمة ويعود الى دراستها فى ص ٦٥ وهو فى ص ١٢ وما بعدها يعرض المناطق التى استمد منها ادلته على الروابط الحضارية وادى النيل جنوب الخرطوم واجزاء من شرق وجنوب افريقيا ونيجيريا وما جاورها فى غرب افريقيا .

فالقضية فى المعمور السودانى اذن لا تقتصر على وضعه بالنسبة الى الحدود السياسية للسودان ولكن بالنسبة الى توزيع المعمور فى الدول المحيطة به وطبيعة مناطق الحدود .. وهى أمور لا يمكن مقابلتها فى افريقية الجديدة الا بروح من التعايش والتعاون . روح تحترم الحد ولا تجمد الحركة .

الانحدار السكانى Population gredient :

جانب آخر من العلاقة بين السودان وما حوله يبدو فى الانحدار السكانى . فاذا ما كانت الدولة العادية ــ نظريا ــ تتكافأ سكانيا مع كل جارة لها . وأن الدولة تحاط بنحو أربع أو خمس من جاراتها ، فلعل من المناسب أن نعتبر الدولة التى تحيط بها من الجيران ما يعادل أربعة أو خمسة أمثال سكانها هى دولة سليمة من ناحية الحجم النسبى (١) . وان كان هذا المعدل يمثل أقلية نادرة فى افريقية ، بينما الأغلبية تهبط دونه بكثير .

على هذا الأساس يمكن أن نميز فى افريقية بين ثلاثة أنماط : الانحدار الموجب والمتكافىء والسالب . ولا تدخل السودان فى مجموعة الدول الموجبة الانحدار والتى تأتى فى مقدمتها نيجيريا وتليها مصر وجنوب افريقية . كذلك لا تأتى فى المجموعة المتعادلة ، وانما تأتى فى أوائل المجموعة السالبة الانحدار حيث نسبة السكان الجيران الى الوحدة ٥ر٦ (٢) . ولكن هذه النسبة تحتاج منا الى توقف قصير . فعدد جيران السودان ثمانية وهو رقم مرتفع ليس فوقه فى افريقية الا الكونغو كنشاسا بتسع جارات . هذا فضلا عن مجاورة السودان لثلاث من دول الأركان فى افريقية : مصر واثيوبيا والكونغو . لعل هذا هو الذى هبط بالانحدار السكانى الى مجموعة الدول السالبة ، بينما

---

(١) جمال حمدان : افريقيا الجديدة : دراسة فى الجغرافيا السياسية ص ١٠٢ القاهرة ١٩٦٦ .

(٢) نفس المرجع ص ١٠٦ .

ارتفع بغانا الى مجموعة الدول الموجبة حيث عدد جاراتها ثلاث وسكانها سبعة ملايين .

دلالة هذا الانحدار اذن نسبية وهو يفسر لنا ــ فيما يفسر ــ مع امكانيات السودان ــ قوة جذبه السكانية لوافدين من حوله ومن الغرب بخاصة . واذا ما كان النيل يجرى من الجنوب الى الشمال ، ففى النطاق الرعوى نهر بشرى يجرى من الغرب الى الشرق لينتهى فى الأرض المقدسة ، ويفيض هذا النهر قبل موسم الحج ، ويكون ــ فى جريانه ــ جزائر سكانية فى أرض السودان ، نستطيع أن نراها فى كردفان ، ويكبر حجمها فى أرض الجزيرة حيث قرى يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف (مايرنو كنموذج) ثم تتناثر جزائر فى الخرطوم والبطانة وكسلا وتعود الى التجمع فى بور سودان ، حيث تعبر البحر الى الأرض المقدسة .. وهذا النهر البشرى له أيضا رواجع بعد الرحلة ، تجتذبها الجزائر السكانية وهى فى طريق العودة .

هل نرى هنا مرة أخرى وسطية جغرافية للسودان بين غرب افريقية والأرض المقدسة ؟

٤ ــ الأمة والحضارة

الوحدة فى التنوع :

أود أن أعود عند هذه المرحلة من الدراسة الى هارتسهورن مرة أخرى وتعريفه الجغرافيا بأنها علم التباين الأرضى ، وكيف أن الرغبة فى معرفة التباين لا تقل أهمية عن الرغبة فى معرفة أوجه الشبه بين مناطق قد تكون متنائية من حيث الموقع . ذلك لأن الدراسة الدقيقة بين أى اقليمين متشابهين ، أو جزءين من اقليم ، لا يمكن أن تظهر تشابها كاملا بينها . فنحن حينما نتحدث عن التشابه فنحن عمليا ــ نتجاوز عن بعض الفروق . لك أن تقول هذا على موضوعات الجغرافية الطبيعية والبشرية . فالفروق موجودة بين المناطق التى نقول

عنها أنها متشابهة .. ومن باب أولى فى المناطق التى نقول عنها أنها متباينة .. الفرق بين الاثنين فرق فى الدرجة لا فى النوع . فاذا زادت الفروق قلنا بالتباين ، واذا قلت قلنا بالتشابه . ولو شئنا قول هارتسهورن لوجدناه « ليس التشابه نقيض التباين وانما هو مجرد تعميم يتجاهل بعض الفروق الصغيرة بينما يؤكد الفروق الكبيرة (١) » .

وكما يقول هتنر أن العلاقات أو الروابط السببية بين الظاهرات الجغرافية نوعان :

(أ) العلاقات المتبادلة بين ظاهرات مختلفة فى مكان واحد .
(ب) العلاقات أو الارتباطات بين ظاهرات من أماكن مختلفة .

وهذا القسم الأخير يقتضى تحرك هذه المؤثرات عبر البقاع أو المناطق . فالماء والهواء ... وبالطبع الحيوانات تنتقل من مكان الى آخر ، وتؤدى الى تفاعل متبادل بين الأماكن . فاذا ما أدخلنا الانسان مسرح الأحداث فان هذا العامل الفعال (الديناميكى) سيصبح أكثر أهمية .. ذلك لأنه غير متحرك بذاته فقط وانما يدفع غيره من الأشياء الى الحركة أيضا . ومن هنا لا تتباين البقاع فى هيئتها فقط ولكن ــ فيما سماه ريتر ــ وظائفها العضوية ؛ ويمكن بعدا عن اللبس ــ أن تقول « علاقاتها الوظيفية » وتقصد به حركة هذه العوامل (٢) .

ذكرت هذا المدخل المنهجى عند دراسة الأمة والحضارة لأنه من الممكن فى دراسة أى قطر من الأقطار ــ مهما كان صغر مساحته ــ أن تجد جوانب من الفروق بين أجزائه .. فالتشابه الكامل معدوم حتى بين شقى الانسان نفسه !!..

ومن هنا يبدو الفرق بين دراسة الظاهرة وتوجيه الظاهرة . وهذا

---

(١) هارتسهورن (١٩٥٩) ص ١٧ .
(٢) نفس المرجع ص ١٩ .

التوجيه يمكن أن يبرز ويؤكد جوانب التباين فى قطـر من الأقطار ، تعميقا للأخاديد فى حياته ؛ ويستطيع أن يؤكد جوانب التشابه ، تاركا أوجه الاختلاف لتعايش وتكامل و « علاقات وظيفية » .

وهذه الرفوق أشبه ما تكون بصخور يحملها النهر فى تياره . هى فى أول أمرها ذات زوايا حادة ، خادشة ، دامية . فاذا ما طال سيرها فى نهر الحياة ، زالت زوائدها ، واستدارت جوانبها ، فأصبحت لينة الملمس . فاذا ما طال بها المدى تضاءلت ثم أرسبت على الأرض تحمل الخصب والنماء . انها قد تحتفظ بكثير من مميزاتها الكيمائية ولكنها ـ ميكانيكيا ـ شىء جديد له وظيفة جديدة .

وفى دراستنا الســودان : اذا كان الحجم والامتــداد والتجمع والوزن السكانى من ركائز الحياة فيها ومقوماتها ، فانها تحمل تحديات على السودان أن يتغلب عليها وهو فى تدفقه التاريخى .

تعدد السلالات ، تباين الميراث التاريخى ، تباين البيئات والحرف ، كل أولئك من مسئوليات الحجم الكبير الذى لا تنجو منه ولا تنأى عنه دولة كبيرة :

على المستوى العالمى : هنــاك ثنائية الثقافتين الفرنسية والانجلو أمريكية فى كندا . فاذا ما اتجهنا جنوبا وجــدنا عالمــا من الثنائيات والمتناقضات فى الولايات المتحدة الامريكية : الشــمال والجنــوب ، البيض والملونون ، البروتســتانت والكاثوليك ، الجمهــوريون والديموقراطيون . ولنتابع الرحلة جنــوبا الى امريكا اللاتينية حيث الأسبان والبرتغال والخاسيون والزنوج والهنود الأمريكيون : غابة انسانية فيها سلالات وفدت من جبهــة عريضة تمتد من جزائر اليابان الى الجزائر البريطانية فضلا عمن جاءوا من امريكا الشمالية وافريقية .. وتكفى البرازيل نموذجا .

وعلى المستوى الافريقى عندنا فى نيجيريا ثلاثية : الحوصا والفولا

المسلمون فى الشمال ، الايبو بدياناتهم التقليدية والمسيحية فى الجنوب الشرقى ، واليوروبا بأغلبيتهم المسيحية فى الجنوب الغربى . هذا مجرد نموذج لما فى النطاق السودانى ، وهو بدوره ـ كنطاق ـ مجرد مثال .

لا مندوحة اذن من وجود المشكلات . واذا كنا نراها فى « العالم الجديد » ، فهى أكثر توفرا فى عالم له عمقه الحضارى القديم ، والاحساس بالذات الذى يتوفر فى قومياته ، ومكونات هذه القوميات فى آسيا وأوروبا وافريقية .

واذا ما كانت هذه الحقائق البشرية تتخذ ذريعة لتعميق الفروق وزرع الأحقاد ، فان أولى الدول بالتمزيق هى كبراها فى عالمنا المعاصر . ولك أن تحصى عدد القوميات والسلالات والطوائف فى كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية .

واذا ما كانت الفروق الحضارية مدعاة الى الفرقة ، فالأولى اتخاذ الفروق الطبيعية ذريعة .. واذا ما كنا نعتبر الجزيرة وحدة طبيعية فلك أن تتصور تطبيق هذه القاعدة على جزائر اليابان وأندونيسيا والجزائر البريطانية !!..

ليس من الغريب اذن أن توجد فى السودان مشكلات حضارية ، بل الغريب ألا توجد فيه مشكلات .. وأين القطر الذى يخلو منها ؟ وهل تفكير افريقيا ذات ال ٢٦٥ مليونا هو تفكيرنا وهى فى طريق النضج الاقتصادى والحضارى الذى قد يصل بسكانها الى الألف مليون ؟.

الحضارة والمداخل :

ولننظر الآن الى السودان باعتباره مجال الالتقاء بين المحورين النيلى والسودانى على أساس مقارن :

١ ــ ففى أقطار النطاق السودانى الغــربى ــ بخاصة ــ نلاحظ ثنائية لا نكاد نخطؤها بين الشمال والجنوب . فالى ما وراء الصحراء يبــدأ نطاق الساحل فالسودان فغانة .. وفى نطاق الساحل والسودان تسود الحضارة العربية الاســلامية . يلى هذا منطقة تخلخل سكانى وزهو حضارى تقليدى . ثم تبدأ منطقة ارتفاع حضارى على ساحل المحيط حيث العواصم الجديدة .

ففى غرب افريقيا قمتان ــ أن قطبان ــ حضاريان : قطب اسلامى عربى شمالى وقطب زنجى جنوبى . واذا شئنا الاصطلاح الذى أطلقه البلدانيون العرب على هذا القطاع لوجدناه السودان مع تمييز بين أجزائه (١) . أما المنطقــة الوسطى فكانت مجــال تنازع بين القطبين الشمالى والجنوبى .

ولقد كان دخول المؤثرات العربية والاسلامية من الشمال .. عبر الصحراء أساسا . فان كان الانبعاث الأول للاسلام من قلب الجزيرة العربية ، وكانت الروابط ولا تزال قائمة بين هذا القلب وكل أجــزاء العالم الاسلامى ، الا أن الذى حمل رسالة الاسلام والعروبة لم يكونوا كلهم من العرب ، وان كانوا جميعا من المسلمين . وانتشار الاسلام كان أقرب ما يكون الى سباق التتابع (٢) . يحمل المشعل جيل من المسلمين من موطن ليسلمه الى جيل آخر فى موطن جديد .. من قلب الجزيرة العربية يحملونه الى مصر والمغرب . ويحمله أهل المغرب الى الصحراء ويحمله هؤلاء وهؤلاء الى غرب افريقية . ثم يحمله أبنــاء الغرب الى أعماق القارة ..

من أجل ذلك لم يكن انتشار الاسلام يحمل هنا معنى السيادة أو الوفود ــ وان قامت من أجله حروب ــ ولم يكن يخضع بعد مرحلة

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودى : ٢٣٥ ــ ٢٥٣ تحت عنوان : ذكر الســودان وانسابهم . القاهرة . ط . البهية ١٣٤٦ هـ .

(٢) جمال حمدان ١٩٦٦ ص ٢٧٠ .

الانطلاق الأولى لسلطة مركزية ، وانما أصبح التفاعل فيه « افريقيا » بين أبنـاء القارة . وكان دخوله صوب الصحراء على جبهة تمتد من البحر الأحمـر الى المحيط الأطلسى وكانت القـوافل تحمل التجـارة والحضارة فى اتجاهات ثلاثة رئيسية :

(أ) اتجاهات أفقية تربط ما بين المحيط الأطلسى والبحر الأحمر وعالم المحيط الهندى .

(ب) اتجاهات رأسـية تربط بين النويات الحضـارية المتقابلة فى نطاقى البحر المتوسط والسودان .

(جـ) اتجاهات قطـرية تربط بين أركان الاطار الضخـم المحيط بالصحراء الكبرى . (عودة الى شكل ١٧) . ونستطيع أن تتتبع هذه الدراسة فى تطورها التاريخى ومـداها الجغرافى عند بوفيل (١) وفى أطلس فيج (٢) على سبيل المثال كما كانت ـ من قبل ـ محل عناية البلدانيين والمؤرخـين العـرب كالقلقشندى (٣) وابن بطـوطة (٤) والبكرى (٥) كمـا غنى عبد المجيد عابدين ـ أساسا ـ بالروابط الحضارية النيلية ـ بين مصر والسودان (٦) .

كانت المؤثرات العربية الاسلامية تأتى اذن من مدخل رئيسى الى النطاق السـودانى ، هو المدخل الشمالى . وكان هنـاك تفاعل بين المدخلين الشمالى والشرقى ، بين الاسلام البرى والاسلام البحرى : الأول حمله الرعاة ورجال القـوافل ، والثانى حمله عرب الجنوب فى

---

(١) Bovill, E.W. : The Golden Trade of the Moors, London, 1961.

(٢) Fage, 1958, op. cit.

(٣) القلقشندى ، أبو العباس احمد : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٦٢ ط دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٢٠ .

(٤) ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد : مهذب تحفة النظار فى غرائب الامصار ... ط . القاهرة ١٩٣٤ .

(٥) البكرى ، أبو عبيد الله : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب . تحقيق دى سلين ط . باريس ١٩١١ . وانظر عنايته بذكر المسافات فى بلاد السودان ص ١٧٢ ـ ١٨٣ .

(٦) عبد المجيد عابدين فى تحقيقه وتعقيبه على كتاب المقريزى : البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب . ط القاهرة ١٩٦١ .

رحلاتهم البحرية .. والتأثير الشمالى قاسم مشترك بين أقطار النطاق السودانى أعطى ما وراء الصحراء صبغة ثقافية مشتركة .

٢ ــ يأتى التباين بعد هذا من توزيع اليابس والماء فى افريقية : اليابس الافريقى فى غرب القارة ينتهى حول خط عرض ٥ شمال خط الاستواء ؛ بينما اليابس فى شرقها يمتد الى خط عرض ٣٥ جنوبا . فرق بين الشرق والغرب مقداره أربعون درجة .. فعندما أراد البرتغاليون الدوران حول افريقية ، وجاءت من بعدهم شعوب أوربية أخرى ــ كان ساحل غانه من الجبهات الافريقية الرئيسية التى امتدت اليها أيدى الأوربيين استغلالا هدميا . وفيها حدث جانب ضخم من النزف البشرى والاقتصادى ، واليها اتجهت أنظار التجار والشركات والمبشرون . وتكونت مراكز حضارية نشط فيها المبشرون فى نشر المسيحية بينما انطوى الشمال المسلم الذى عجز الاستعمار عن اختراق درعه الصلب على شاطىء البحر المتوسط ، فقام حوله بعملية الالتفاف هذه .. وبدأت تتكون قوة جديدة فى الجنوب ــ تتباين دينا وحضارة عن الشمال ، وبينهما ــ كما سبق القول ــ الوسط الفقير مجال التنازع .

٣ ــ الصورة فى السودان لم تكن كذلك : لأن المدخل الرئيسى للسودان ظل المدخل الشمالى ــ بمدلوله الواسع بمائه ويابسه ــ منه أتت المؤثرات العربية والاسلامية ــ وقد جاءت المؤثرات الأوربية .. وكان وصول أوربا الى جنوب السودان « عبورا » من شمال السودان لا التفافا حوله ــ مع ما دار من صراع حول أعالى النيل تأثر بالمداخل الشرقية والغربية ــ ولم يكن التأثير الأوربى ــ على تباين فى حامليه ــ أول خطوات مشت فوق أرض الجنوب .. وانما كانت قبلا هناك مؤثرات عربية واسلامية . بل ان الروابط الحضارية على طول النهر من منابعه الى مصبه ، يمكن أن نردها الى عهود الحضارة القديمة (١) .

---

(١) سلجمان (١٩٣٤) ومحاضرة قريزر التذكارية كلها دراسة لهذا الموضوع .

لم يكن السودان الجنوبى اذن أرضا مجهـولة عندما جاء النفوذ الأوربى ، وانما أراد أن يجعله مجهولا بعد أن جاء .. وأراد أن تقطع روابط ، كان من الممكن بالتطور الطبيعى والتفاعل العـالمى أن تنفى عنها تناقضات تاريخيه ، وأن تحل محلها روابط وظيفية جديدة تجرف فى طريقها علاقات بائدة .

من هنا اختلفت طبيعة التأثير الأوربى على جنوب السودان ، عما حدث فى الأجزاء الجنوبية من غرب افريقية . فغرب افريقية كان التفاعل فيه ثنائيا بين الأوضاع التقليدية القديمة والأوربية الوافدة ، بينما فى جنوب السودان كان ثلاثيا بين الأوضاع التقليدية القديمة ، والحضارة العربية الاسلامية ، والأوربية الوافدة .

٤ ــ وبينما كانت القطاعات الشمالية القارية فى السودان الغربى شبه مجمدة أو فى موقف الدفاع ــ الى حد بعيد ــ كانت فى السودان متفاعلة تغـلى بالصراع ، باعتبـارها الجبهـة التى تهب عليها الرياح الحضارية العاصفة ، وتأتى منها النسمات الهادئة .. كان شأن السودان الشمالى فى هذا لا يختلف عن مصر والأقطار الساحلية من المغـرب : مداخل جاءت منها المؤثرات الأوربيـة وجبهات دار فيها الصراع بين الاستعمار والتحرر . وبعبارة أخرى : اذا كانت الأجزاء الجنوبية فى غرب افريقية فى مهب الرياح الأوربية ، والأجزاء الشمالية فى متصرفها ، فقد كانت الأجـزاء الشمالية من السـودان فى مهب الرياح والأجزاء الجنوبية فى متصرفها .

٥ ــ يضاف الى هذا أن غرب أفريقية فيه النطاق الاوسط المتخلخل الذى يكاد أن يكون شقة حراما ــ أو مجال صراع ــ بين القطبين ، بينما العمران بين السودان الشمالى والجنوبى متصل .. وقد يكون الوضع مختلفا لو كانت السلالات الجنوبية تعيش جنـوب السدود والشمالية شـماله ، بحيث تكون السدود ــ وهى منطقـة التخلخل السكانى هى المميزة بين شمال وجنوب . ولكن هذه المنطقة ــ ونعنى

منطقة السدود ــ توجد فى قلب الجنوب والتقاء السلالات مستمر على جبهة من سفوح أثيوبيا الى السودان الغربى دون أى فاصل . ذلك لان العوامل الجغرافية هنا تشجع على الالتقاء وواقع التأريخ يصدقه.. ولو أخذنا النيل الأبيض مثالا لوجدنا قبائل من الجعليين والكواهلة .. حتى خط عرض ١٢° شمالا وتتوغل جنوبا غربه (١) . وتبــدأ أوطان النيلين من الدنكا شرق النهر والشلوك غربه (٢) . ولن نجد أى حائل طبيعى من مظاهر جيومورفولجية أو تباين مناخى أو نباتى يمكن أن يتخذ ذريعة لتعميق أى تميز . واستعمال لفظ « تبدأ » هنا فيه كثير من التجاوز فان طبيعة مثل هذا اللقاء البشرى أن يكون كالانتشار الغشائى الذى تنتقل به الصفات والثقافات اندماجا وتعايشا .

هناك انتشار غشائى لا يخطئه البحث بين قلب المعمور السودانى وأطرافه : تحمى به فى وطن البجاة فى الشرق ــ وهى المنطقة التى سعدت بالحياة والبحث فيها (٣) ــ كما تراه فى الشمال فى منطقة النيل النوبى وفى الغرب وفى الجنوب .. ولا شك فى أن قوة قلب السودان على دفع المؤثرات الحضارية تتأثر بعوامل متعددة من نظام المواصلات وسرعة التفاعل وكثرة الأضواء الخضراء على طريقها .. وقبل هذا وفوقــه بتعميق الاحساس بكيان هو واقع ومصير .

من هنا تبدو بعض آثار التوزيعات الجغرافية للمداخل الحضارية وعلاقتها بالسودان « كأمة » .

اللقاء الحضارى :

واذا ما مددنا أنظارنا وراء المداخل الشمالية ــ برية وبحرية ــ

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله شكل ١٢ ص ١٤٩ ــ القاهرة ١٩٥١ .

(٢) Butt, A.: The Nilotes of the Anglo-Egyptian Sudan and Uganda, London, (N.D.).

انظر الخريطة المرفقة بالكتاب مقارنة مع خريطة عوض (١٩٥١) .

(٣) كان موضوع رسالة الدكتوراه لكاتب هذا البحث « دلتا القاش » دراسة اقليمية فى السودان الشرقى أمضى فترة الدراسة الميدانية .

وجدنا أن السودان ــ بأغلب سكانه ــ جزء من عالم ضخم هو العالم العربى وما حوله من عالم اسلامى .

والوطن الاسلامى ــ بمدلوله الواسع ــ يكون قارة وسطى بين قارات العالم القديم (١) ويمثل الوطن العربى فيها منطقة القلب .

ومن طبيعة الوضع الجغرافى للسودان أنه كان ولا يزال جبهة من جبهات العالم العربى والاسلامى .. ودول الأطراف بطبيعتها لهامشكلات تكاد أن تكون حتما تاريخيا ، مالم يكن وراءها حد طبيعى صارم ، يبدو فى أروع صوره فى خط التقاء اليابس والماء .

فاذا ماكنا قد تحدثنا عن وسطية السودان الجغرافية فى أفريقية ، فله هنا وضع جغرافى آخر بالنسبة الى الكتلة الكبيرة . ولنأخذ مثالا موضحا : الحدود الجنوبية لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية هو بحر العرب وهو فى نفس الوقت حد عربى واسلامى ، فهنا تتطابق الحدود الثلاثة .. ولك أن تقول الأربعة اذا أضفت اليها السلالات . مثل هذا تستطيع أن تقوله عن الجبهة البحرية للسودان على البحر الأحمر ، فهى جبهة ليست لها مشكلات مع جيران .

ولكن السودان بمعموره : النواة والامتدادا توالأرخبيل البشرى فى الجنوب والخليج البشرى فى الشمال ،نجد فيه حدا عربيا ، وثانيا اسلاميا ، وثالثا سياسيا فى الجنوب . وهى ليست حدودا خطية وانما هى نمط من الانتشار الكوكبى الذى لا تستطيع ــ فى صرامة ــ ان تميزه بخط أو جبهة . والمنطقة التى تكاملت فيها هذه الجوانب من التطابق اللغوى والدينى تتمثل ــ أكثر ما تتمثل ــ فى الشمال . وهى مركز الثقل الحضارى فى السودان . ولكن لننظر الى المنطلقات التى تؤثر فيها فكريا والتى تتحكم فى اللقاء الحضارى :

١ــ هناك أولا سماحة الاسلام وكفالته لحرية العقيدة « لا اكراه

(١) Fernau, F. W. : Moslems on the March, p. 19, London, 1955.

فى الدين » (البقرة ٢٥٦) والنموذج المصرى واضح على سماحة التعايش بين الاسلام والمسيحية مع استبعاد التأثير الاستعمارى ، والايمان بوحدة قومية .

٢ ــ وهناك نظرة الاسلام الى اللون « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله اتقاكم » (الحجرا ت١٣٠) وآيات القرآن صريحة فى اعتبار الانسانية كلها أسرة واحدة « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا » (النساء ١) (١) .

٣ ــ واذا ما كان هذا احترام الاسلام للانسان فهناك أيضا احترامه للأرض باعتبارها مجالا لنشاط الانسان . « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (طه ٥٥) وقوله تعالى « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » (الملك : ١٥) .

هذه هى نظرة الاسلام الى الانسان والبيئة : العاملين الأساسيين فى أية دراسة جغرافية ، وأى تفاعل حضارى .

وبهذا الضوء تستطيع أن تقيم ما كتب البلدانيون العرب عن الشعوب ونظرتهم اليها . واذكر فى هذه المناسبة نصا للمسعودى فى مروج الذهب .. فهو يذكر ايمانهم بالرب الكبير ثم يقول « والزنج أولو فصاحة فى ألسنتهم وفيهم خطباء بلغتهم يقف الرجل منهم الزاهد فيخطب على الخلق الكثير منهم ويرغبهم فى التقرب الى بارئهم ويبعثهم على طاعته ويرهبهم من عقابه وصولته ويذكرهم من مضى من ملوكهم

---

(١) عبد العزيز كامل : الاسلام والتفرقة العنصرية ــ اليونسكو ١٩٧٠ باللغات العربية والانجليزية والفرنسية ــ سلسلة التفرقة العنصرية والفكر الحديث .

وأسلافهم (١) . فالمنهج الذى اتبعه البلدانيو نالمسلمون كان الى حد بعيد موضوعيا فيه بالعدل الذى أمرهم به دينهم .

أسوق ذلك لأبين أنه مع النهضة التى يمر بها السودان الآن سيعاد النظر فى كثير من المفاهيم التى وفدت الينا والكتب التى بين أيدينا ، وأحس أننا فى فجر « عصر نهضة » يعاد فيه النظر فى دراساتنا الانسانية فى ضوء من الحياة الجديدة .. وهذا بدوره سينعكس على المفاهيم التى تعيش بها . وهذه بدورها ستؤدى الى تكوين هيئات حضارية جديدة من التفاعل الخصب بين أبناء أفريقية وأرضهم على مستوى القارة وعلى مستوى الاحداث السياسية . ومن هنا ستتحدد ملامح جـديدة من الشخصية الافريقية تتكون من مجموع الملامح التى تبرز من التفاعل على مستوى الأقطار والأقاليم .

وقد بد ت بعض خيوط هذا الغطاء الفكرى فى أفريقية .. ومن هذه الخيوط تنسج أقطارها أملا جديدا ، تحاول أن تنقله ، بالعلم والعقيدة والتعايش ، الى أرض الحقيقة .

خاتمـــة

قلت فى صدر هذا العرض : ان دراسة الشخصية الاقليمية عملعلمى وفنى وتطبيقى فى نفس الوقت .. واذا كان تقريرنا لأمر مضى ، فهـو تقديرى لأمر مستقبل ، واذا كان يحمل عنصر التاريخ ، فليضمه الى الحاضر ، صاعدا الى المستقبل . وقد حاولت أن أبرز فى هذا العرض بعض « جوانب » أو « ملامح » من شخصية السودان تستقطب الكثير من الحقائق على أساس مقارن .. وكان المحور الرئيسى الذى دار حوله البحث هو : الوسطية الجغرافية للسودان ... هل أضم اليها فى ختام هـذا الحديث « الوسطية السياسية » ودور السـودان فى التوفيق والمساهمة فى القضايا العربية ؟ انها صورة من « شخصية السودان » على الصعيد العربى لها ما يعززها جغرافيا وتاريخيا .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ١ : ٢٤٤ .